الإنسان في معارج التكريم

للسيد العلامة المجاهد

يحيى بدر الدين الحوثي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما طغت شائعة الآراء النظرية والمصطلحات الموضوعية في كثير من المسائل الفرعية والاجتهادية، سواء الفقهية أو الكلامية أو أي موضوع ديني أو تاريخي أو ولائي فتح نفسه على الجدل والنقد، وأتاح للنظر والرأي فرصة التأمل والإدلاء، وحينما أصبح الناس محكومين - علموا أو لم يعلموا- بخطوط متباينة وتيارات ملونة ومختلفة الاتجاهات، فأفرزت بطبيعة التباين والاختلاف في الاتجاهات حالة من المعترك ألآرائي النظري والاجتهادي، انسحب بطبيعة التصادم، والتحمس، والتعصب، والتصعيد غير المسئول، على المجتمع، ليسمه ويطبعه بطابع العداء والتنافر، فيعلوا صوت البعض في وجه البعض الآخر، ويشير البعض إلى البعض الآخر بأصابع الاتهام، ويضيع المنطق، ويتحكم التعصب، وينفر الناس من هنا وهناك، باتجاه هذه الزوبعات، ليؤججوا من إشعال هذه الظاهرة، ويسود التنابز وأخواته.

حين طغت تلك الشائعة وساد ذلك المعترك كان الضحية هو الإنسان الذي أنشئ الكون لخدمته ، وجاء الدين من أجل إحيائه ، وفرضت الأحكام لتنميته وتكريمه ، هذا الإنسان المحترم الدم، والمال، والعرض، قد ضلله الغاوون، وتحكم في عقله، ومشاعره الدجالون، فسخره الجاهلون والمتعصبون لخدمة آرائهم، ووجهات أنظارهم، التي كان المفترض أن تسخر هي لخدمته، ومنفعته، فراحوا يقتلونه، وينهبون ماله، ويقطعون رزقه، وينتهكون حرمته تحت وطأة تعصباتهم لآرائهم، ومذهبياتهم، ومدلولات مصطلحاتهم، متجاهلين منطق العقل، ومعرضين عن الأصول، وقواعد الدين، وأهداف الإسلام السامية، التي تصب معظم - إن لم يكن كل - طاقاتها في قالب هذا الإنسان، لتكوّن منه المجتمع المثالي الفاضل، الهادئ، والمطمئن، كما أضاعوا وحرَّفوا الموقف الحق، المطلوب من هذا الإنسان والذي انبنا عليه مبدأ الجزاء بالمثوبة والتكرمة، حيث حولوا بتعصبهم لمبادئهم وآرائهم هذا المبدأ، وطوعوه لبدعهم، فالحق ما يقولونه، وما يطرحونه، عكس ما كلفوا به.

أما مبدأ الجزاء على الأعمال فحدث ولا حرج، حيث يطرحون في خطابهم وكأن مفاتيح الجنَّات والنار بأيديهم، يمنحون الجنة لمن شاءوا ويمنعون من شاءوا، ويعذبون كذلك، إمعاناً في الدجل، وتعمقاً في التضليل.

ولذا أرى أن حل هذه الإشكالية المتشابكة، هي إثارة علم ما يسمى بالفكر الإسلامي، واستظهار أهداف الإسلام، والالتفات إلى إشارات القرآن نحو: (الكون والإنسان، والعقل، والعلم، والمواقف الحقة، والجزاء، ليخرجوا في النهاية إلى رؤية الإسلام الواضحة المنيرة).

ومن هنا أقدم مشاركتي هذه كمساهمة في بناء هذا المشروع.

[الباب الأول الخلق]

الخلق: هو الإيجاد والإنشاء، والخلق هو هذا الكون الفسيح الذي أنشأه الله من العدم ليحيله إلى العدم إنفاذاً لقدرته وتحقيقاً لإرادته.

ولخلق السماوات والأرض، رسالة ذات أبعاد ثلاثة:

البعد الأول: الدلالة:

وهي ظاهرة من خلال التركيب الذاتي لهذا الخلق، والمواصفات العامة، من أشكال، وألوان، وحركات، ونظام، وتفاعلات، ومعاني، ومواد تمثل في كليتها، وأجزائها، ما صغر منها، وما كبر، دليلاً على صانعها، ومبدعها، ومنشئها، دلالةً ثابتة بخلقتها وجبلَّتِها، ظاهرة في كل صفة من صفاتها، لا تحتاج إلى دقة وتأمل، ولا تفتقر إلى بحث وتفهم، بل حقيقة ملموسة ومشاهدة محسوسة،ومعلومة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ولا يعتريها الشك، ولا يكتنفها الغموض، يقول الله تعالى **{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [البقرة:١٦٤]

ويقول تعالى **{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }** [الطلاق: ١٢].فهي آيات بينات تعطي العلم بالخالق الصانع.

البعد الثاني: العطاء:

ويظهر هذا العطاء من خلال ما تقدمه هذه المخلوقات، من خدمات واسعة، وجليلة، ومتعددة، لهذا الإنسان، بصورة مباشرة، وغير مباشرة، يقول تعالى **{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }** [إبراهيم : ٣٤].

وهذا الخلق الواسع جداً بما يحويه من أجرام ضخمة، وطاقات هائلة، وثروات متنوعة، عبارة عن مملكة واسعة بين يدي هذا الإنسان، ليستغلها، ويستثمرها، ويعمرها، فهي ملكه وله، ومن أجله خُلِقت وسخرت، يقول تعالى:**{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**[البقرة:٢٩]، ويقول: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ }**[هود:٦١]

فالإنسان غايتها، وهدفها، فهذه الشمس العملاقة تركض في أعالي السماء، لتمنحه الضوء، والدفء والليل والنهار، وتصلح له الكثير مما يحتاج إليه، من حيوان، وأشجار، وغير ذلك، وذلك القمر المنير، يتنوع في أشكاله، ويتنقل في منازله بانتظام، ليعلمه عدد السنين والحساب، وذلك النجم المعلق في متاهات الفضاء يتلألأ ليدله على نهج السبيل، ويحميه من التيه في ظلمات البر والبحر.

وهذه الأرض المدحوَّة بما تعج به من خير وفضل،الحيوانات البرية، والبحرية، والماء، والهواء، والتراب، والشجر، والمعادن، والأمطار، وغير ذلك مما لا يحصى عدُّه، يقول تعالى **{وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}** [الرحمن ١٢]

ويقول تعالى:**{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ**

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل:إلى ١٨]

بهذا اللطف، وبهذا التعبير الحنون الذي ملئه الرأفة والرحمة، والكرم، وبكل احترام وتعظيم، يقدم الخالق عز وجل هذه المائدة الفسيحة لهذا الإنسان، مكرراً عبارات ـــ لكم - ولتأكلوا - تلبسونها - ولتبتغوا من فضله.. الخ، فكل هذا لك، وكله من أجلك، وفي محبتك، إنَّ هذا لهو الكرم، والتكريم العظيم.

ثم ألا يدل هذا الكرم الواسع، وذلك التعبير في تقديمه تعالى لهذه المائدة، التي لا يحصى خيرها، على تعظيم هذا الإنسان، وتكريمه، بلى أعتقد أن هذا دليل واضح، على علو مكانة الإنسان عند الله تعالى، وأنه قبلة هذا الكون الذي يتجه في عطاءاته كلها، ما صغر وما كبر نحوه، وأنه محوره الذي يدور من حوله، فالإنسان مالك متصرف، وحاكم مستخلف، يستفيد من الخلق، ويستغله، ولا يستفيد منه الخلق، يقول تعالى:**{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}** [الإسراء:٧٠].

البعد الثالث: الاختبار:

ويتجلى هذا الاختبار من خلال ارتباط حياة الإنسان وبقائه حيّاً بهذه، المخلوقات من هواءٍ يتنفسه، وطعام يأكله، وماء يشربه، ومال يتملكه، وغير ذلك مما يدخل التعامل معه ضمن دائرة التنظيم التشريعي، والتقنيني لهذا الارتباط بين الإنسان وحاجاته، المتمثل في كثير من أحكام التحليل، والتحريم، يقول تعالى: **{وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [طه:١٣١]، ويقول:**{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** [التغابن:١٥]، ويتضح الاختبار من خلال تعلق معظم الأحكام الشرعية بالخلق، فأحكام التملك، والإنفاق، والتجارة والصناعة، والزراعة، والأكل والشرب، والمواريث، وغير ذلك من أحكام الإسلام، كلها تشكل ميدان الاختبار والامتحان، ليتجلى إيمان المؤمن الصادق في إيمانه من خلال تجاوبه لأمر الله تعالى في كل ذلك.

وحينما نتجاوز في بحثنا هذه الرسالة، بُعدي الدلالة والعطاء، ونتجه صوب البعد الثالث، الذي هو الاختبار، نجد أن الترابط والامتداد بين عالمي الحياة الأولى والأخرى، ثابتاً وقائماً لاشك فيه، ويتمثل في كون هذا الإنسان يعيش داخل مختبر واسع ومحاط بمراصد ترصده في جميع أفعاله، وما تثيره هذه العوامل من غرائز وأهواء، ليجازى على قدر فعله، من خير وشر، فهذه الحياة الأولى ليست إلا مقدمة للحياة الأخرى الدائمة، ومرحلة أولية يتم فيها تشخيص كل فرد عاقل، على ضوء ما يقوم به من عمل، ليجازى هنالك وفق عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ويقول تعالى: **{وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}** [الجاثية:٢٢]، ويقول:**{ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}** [الملك:٢]، إذاً فالهدف من صناعة هذا الخلق بما فيه الإنسان المرتبطة حياته به هو الابتلاء والاختبار وتحديد المصير، وكل ذلك من الحق والحكمة، فالخالق تعالى أراد ولا رادَّ لإرادته أن ينشئَ عالماً هكذا، وله الحق أن يخلق وأن يبتلي، وأن يفعل ما يشاء. والنتيجة هي، أن الإنسان هو هدف هذا الخلق، الذي يحيط به ويستفيد منه.

الإنسان ذو القيمة العالية

والإنسان هو هذا الخليقة، آدم ونسله، وتبرز قيمة الإنسان من خلال مايلي:

١- ما هيأه الله له من الخلق.
٢- ما يحمله من عقل.
٣- ما يقوم به من مهام وواجبات.
٤- ما أعطي من تكريم.

أما ما هيئ له من الخلق فواضح في ما سلف، وأما ما يحمله من العقل فواضح أيضاً من واقعه الخلقي، ومن توجيه الدلالة إليه، وإدراكه لهذه الدلالة، وما تحمله من مدلولات، وسيأتي الحديث عن العقل بصورة موسّعة لاحقاً، وأما ما يقوم به من مهام وواجبات، فيظهر من خلال ثلاثة محاور:

أ- أصالته بالنسبة للخلق وثانوية الخلق بالنسبة له.

ب - الدلالة التي يحملها هذا الخلق كما في قوله تعالى: **{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}** [الطلاق: ١٢].

جـ - الرسل البشرية، والكتب السماوية التي جاء ت لتعزيز دلالات الخلق، وتفصيل المجمل منها، ولفت النظر إليها، وبلورة تلك المهام والواجبات التي كُلِّف هذا الإنسان بحملها على ألسن الأنبياء وسلوكهم، وما تضمنته كتبهم من أحكام، وتشريعات، وتوصيات، يقول تعالى: **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات:٥٦]،

ويقول تعالى: **{ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}** [الغاشية:١٧].

وهذه المهام والواجبات فهي التكليف، وهي الهدف من وراء إنشـــاء هذا الخلق، كله، وكل شيء بالنسبة لهذا التكليف ثانوي، حتى الإنسان سيصبح في هذا الميدان ثانوياً، رغم ما قد كســـبه من قيمة عالية، ودرجات رفيعة، لأنه هو بذاته خلق للقيام بهذه التكاليف، إذاً فهو ثانوي هنا.

أما التكريم الذي منحه الخالق تعالى للإنســـان، فيظهر كله من خلال ما تقدم ذكره، ومن خلال ما نبهته عليه النصوص، القرآنية، والنبوية،- من ثلاثة جوانب -.

الجانب الأول: الكمال الخلقي للإنسان، وما يتمتع به من مزايا عالية، وكفاءات متعددة، وغرائز، وأحاسيس، ومشاعر نفسية، وفوق كل ذلك القوى العقلية، يقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ }** [الإنفطار:٧]،

ويقول: مقسما:**{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين:٤]، ويقول: **{ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}**[الرحمن ٤] ويقول: **{ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ،عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**[العلق ٥].

الجانب الثاني: ما يحيط به من رزق، وما يتمتع به من نعم، يقول تعالى: **{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}** [الإسراء:٧٠]، وقد أحب الله تعالى ظهور هذه النعم على عباده، يقول تعالى: **{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف إلى ٣٣].

أما الجانب الأخير: فجانب التشريعات، والأحكام والتقنين التي عمت بعطائها الإنسان، في ذاته، ومعنوياته، وفيما يتعلق به من ماديات، وفي حقه في الاستفادة من عطاء هذه التشريعات، حتى وإن لم يكن ممن اقتدى برسلها، يقول تعالى: **{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ**

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:٤٩].

وفي قصة تبين عدالة رسول الله محمد(ص) مع اليهود، وذلك حين جاء بعض كبار اليهود إليه ليطلبوا منه أن يحكم لهم على خصومهم من أهل ملتهم، ويغروه بإسلامهم، قائلين: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود، وإنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكم إليك، فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك، ونصدقك، فأبى رسول الله (ص) إلتزاما منه بالعدل، الذي كلف بالدعوة إليه، ذكر ذلك الزمخشري في تفسير سورة المائدة- ص٦١٨.

ومن حق الإنسان أن يستمع إلى هذه الرسالات، وأن يطلع عليها، يقول تعالى: **{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [الأعراف:١٥٨]، ويقول: **{** وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ **بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا** إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}**[النحل٤٤].

وهذه التشريعات قد ضمنت للإنسان حقه في الحياة والعيش، والتملك، والحرية، والتنقل في الأرض، وحرّمت مضارّته في بدنه، أو عرضه، أو ماله، - إلا بالحق الواضح شرعاً-.

فالإنسان الواحد من حيث القيمة والحرمة في الشرع، يساوي البشرية بأكملها إحياءً، وإماتةً، كما هما سواء في قدرة الله، يقول تعالى في ذلك: **{** مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ **}** [المائدة:٣٢]، ويقول في وحدة القدرة الإلهية، على الفرد الواحد، والمجموع الكامل: **{** مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**}** [لقمان:٢٨].
وقال في الكشاف للزمخشري في تفسير هذه الآية: فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع، وجعل حكمه كحكمهم؟

قلت: لأن كل إنسان يدلي بما يدلي به الآخر من الكرامة على الله، وثبوت الحرمة، فإذا قُتِل فقد أهين ما كرم الله، وهتكت حرمته، وعلى العكس، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك- المائدة: ص٦٠٩.

ويقول تعالى: { وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[الإسراء:٣٣]، ويقول: { وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ } [التكوير:٩].

وأوجبت التعامل معه بالحق، والعدل، والإحسان، يقول تعالى: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الممتحنة:٨]، { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ} [البقرة:٨٣]، وفي الآيات التي جاء ت بعد صلح الحديبية ما يؤكد هذه الحرمة، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]ويقول { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:٨]

ويقول{ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:١٨٨]، ويقول { وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}[الروم:٣٩]، { وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيوْمٍ عَظِيمٍ }[المطففين٣].

وحرمت تضليل الإنسان، وإبعاده، أوصده عن الحق والرشاد، يقول تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}[الأنفال:٣٦]

ويقول الرسول (ص) مبيناً حق هذا الإنسان: (من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو مؤمن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت محبته، وحرمت غيبته) [مسندالإمام زيد-ع- ص: ٤٧٢]

وعنه (ص) انه قال: (إن أقربكم مني غداً وأوجبكم علي شفاعةً، أصدقكم لساناً وأدّاكم لأمانته، وأحسنكم خُلُقاً، وأقربكم من الناس) [المسند:ص٣٩٠]

وكان يقول (ص) حين يوجه الجيش لحرب المشركين (وأيما رجل من أقصاكم، أوأدناكم، من أحراركم ، أو عبيدكم، أعطى رجلا منهم أماناً، أو أشار إليه بيده، فأقبل إليه بإشارته، فله الأمان حتى يسمع كلام الله، فإن قبل فأخوكم في دينكم، وإن أبى فردوه إلى مأمنه، واستعينوا بالله عليه) [المسند:٣٥١]

وبعد حوار طويل دار بين الإمام علي (ع) والخوارج - وكانوا قد جاءوا إليه بأمان للتفاوض والحوار، وكانت قد فشلت تلك الحوارات معهم حيث لم يتوصلوا إلى حل نتيجة تعصب الخوارج، وتحجرهم على آرائهم - أمرهم بأن يعودوا إلى مراكزهم، حتى إذا رجعوا إلى مراكزهم كلهم، ناداهم بصوت عال ثلاث مرات: - رجعتم كما كنتم قبل الأمان من صفوفكم؟..

فنادوا كلهم : نعم: فالتفت إلى الناس فقال: (الله أكبر).[الحدائق الوردية]

ويقول الإمام علي (ع) موضحاً ما قلناه من حرمةٍ وحقٍ لهذا الإنسان، لمالك الأشتر النخعي رضي الله عنه في عهده له حين ولاه مصر:(وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق) [نهج البلاغة:٣٥٧]،

ويقول: (أنصف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم) [نهج البلاغة:٣٦٩]

هذه جملة توضيحية، عن تكريم الله لهذا الإنسان، كإنسان استخلفه الله في أرضه وأرغد عليه من نعمه، وزوده من مقومات حياته، وفضله في خلقته وآلائه على كثير ممن خلق الله تفضيلا.

الإنسان وصراع الحياة

وحينما نلتفت بأنظارنا تجاه حياة الإنسان على هذه الأرض، وتفاعله مع نفسه، ومتطلباتها، وغرائزها من راحة، وتعب، وهم، وحزن، وحب، وكراهية، وحسد، وكبر، وخوف، وأمن، وصداقة، وغنى وفقر، وصحة، وسقم، ومعرفة وجهل، وصلات الأهل والولد، والقرابة والعشيرة..الخ. نجده يعاني، ويصارع سواء كان نبياً، أم فاسقاً، جاهلا، أم عالماً، مسلما، أم كافراً، مطيعاً أم عاصياً.

المهم أنه إنسان فهو يكدح، ويصارع من بداية حياته إلى مماته، فالحياة قائمة بطبيعتها وخلقتها، على الابتلاء، والاختبار،والسير نحو الآخرة حيث الجزاء والخلود، يقول : **{** تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ **}**[الملك:٢]،ويقول: **{** إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**}**[الكهف:٧].ويقول:{ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين} البقرة ١٥٥

فكل إنسان سينالـه من عناء الحياة ما يغمره، ونحن في هذا العناء سواء، كلنا نفقد الأقارب ، وتذهب أموالنا، وتتبدد آمالنا، ونصاب بالخوف أحياناً، وبالجوع أحياناً، ونصحُّ، ونسقم ونفرح، ونحزن، ونغنى، ونفتقر، ونحب ونكره، إلى آخر ما يمكن أن يعانيه كل إنسان على وجه هذه الأرض، لامناص ولا مهرب من متاعب الحياة، مهما عاش الإنسان حياً على ظهر هذا الكوكب، والسؤال ما هو المطلوب، من كل هذا المعترك؟.

الجواب: هو الحصول على الموقف الحق الذي يمثل الذهب الخالص المتخلص من شوائب الأحجار والأتربة، بالوقود والحرارة. فهذه التناقضات بين ما يؤمله الإنسان وما يتطلع إليه، وبين معاندة الحياة لآماله ولتطلعاته، وهذه المصاعب والمفاجآت، والحاجات كلها تمثل المحك الحقيقي الذي يظهر الإنسان من خلاله وهو يؤدي دوره ويثبت - بجدارة وواقعية- قدرته على اتخاذ المواقف الحقة، أو يتراجع ويسقط، لتلتهمه تلك التناقضات، وذلك الصراع، يقول تعالى: **{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }** [الجاثية:٢٢]، وهذا الموقف هو الفارق والفاصل الأول بين الرابح والخاسر، وبين من تحقق بوجوده هدف كل هذه الخليقة، وبين من لم يتحقق بوجوده ذلك الهدف.

وهذا الموقف الحق ليس إلا فارقاً معنوياً في معظم الحالات بين الإنسان الإيجابي وبين الإنسان السلبي، يعطى الناجح بموجبه الفلاح، والطمأنينة النفسية، والسمو الروحي، يبقى هذا العطاء ويخلد، ولا يفنى.

ذلك لأن هذا الكون الذي يعبد الله ويعنوا لجلاله، ويذل في ساحة عبوديته، ويخضع لإرادته وتدبيره، وتلك الفطرة التي يحملها الإنسان، وهذه الرسالات تسير كلها بشكل تكاملي متوجهة نحو الله تعالى، يقول تعالى: **{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء }**[الحج:١٨]، ويقول: **{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }** [الجمعة:١]

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الخط بالصراط المستقيم، فالإنسان المنتظم في سلك هذه المنظومة، - الكون- والفطرة - والرسالة - يبقى ما بقي حياً أحد أفراد هذه المجموعة، المعترف به كفرد منتظم داخل هذا التنظيم الإلهي، وليصل في العالم الآخر، والحياة الأخرى، بعد البعث إلى الله، وهو يحمل نفس الهوية، قال تعالى:**{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}**فصلت: ٣١]

وهذا المنتظم هو ذلك الإنسان الذي يتعامل مع ما حوله من الخلق، والحاجات والرغبات، ومع كل ماله علاقة بالذات سلباً وإيجابا، وفق تشريعات الله، الأمر الذي يعني تحقق الهدف المنشود من كل هذه الظاهرة الكونية، قال تعالى: **{ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}**[الذاريات: ٥٨]

أما من لا يتعامل مع كل هذا وفق تشريعات الله ، ولم يؤطِّر نفسه بذلك الإطار، وبوضعيته الكاملة، فهو الفرد الفوضوي الذي سيتوه ويضل في خضم التفاعل الإيجابي والسلبي لهذه الحياة، ومن ثم يبتعد عن الطريق المستقيم، ليهوّي في متاهات العالَمين ، الأول، والآخر، فتتقاذفه تلك المتاهات، وتترامى به تلك المهاوي، ليصل إلى من سبقه من أفراد حزبه، ممن ضلوا عن الطريق فابتعدوا عن الله، ليصلوا إلى أعداء الله، قال تعالى عن الشيطان المضل:**{ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}**[ص: ٨٥]، ويقول:**{** وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**}** [الأنعام: ١٥٣]، إذاً فلا فرق بين هذا وذاك، من خلال النظرة إلى واقع معاناة الحياة،سِوى الوضع المعنوي - الموقف الحق- الذي هو الانتظام والانسجام مع واقع الطرح الرسالي الإلهي.

<u>بعض مظاهر هذه الامتحانات:</u>

وفيما يلي نعرض بصورة مختصرة، بعض المظاهر الحياتية التي طالت الإنسان السالك، والفوضوي الأعوج على حد سواء.

١. ابن نوح (ع) يرفض الركوب مع أبيه في السفينة، فيغرق في الطوفان حيث سبب امتحانا كبيرا وحزنا عميقا لأبيه ، وحصوله على ما يمكن أن يسمى عتاباً من الله

تعالى، فابنه لم تنفعه فوضـــويته فينجو من الغرق، وهو الآخر لم يســـلم من الامتحان لموقع نبوته، لأن المسألة هي إحدى مظاهر الشر في هذه الحياة.

٢. فرعون يقتل أحد المؤمنين الناصحين ويقتل السحرة حين آمنوا بموسى، فلم يدفع عنهم إيمانهم من القتل، فهم بذلك ممتحنون، بأحد مظاهر الشـــر في هذه الحياة وهو الظلم الذي يقترفه الإنسان بحق أخيه الإنسان،

٣. فرعون يغرق في البحر هو وجنوده، وهاهو يأتي دور فرعون ليعب من كأس الحياة عبا، فـيـعاني من شرها، وبطشها كما عانى غيره، فلم ينجّه ملكه،وقدراته المادية من الغرق، ولم تنفعه جيوشه وإمكانياته.

٤. النبي يوسف (ع) يحبس في السجن بضع سنين، وهو نبي كريم.

٥. خباز الملك يحبس ويقتل.

٦. سليمان (ع) نبي وملك، حشر له الملك حشرا وسخرت له الريح، والجن، والإنس، والطير، بينما الكثير من أنبياء الله يعانون من البأســاء والضــراء، حتى أن بعضــهم كان يقتات الشجر، والناس أجمعون وبصِنفَيهم الخيّر منهم والشرّير، يعايشون هكذا حالات،

٧. قارون ابتلعته وماله الأرض.

٨. النبي أيوب (ع) يمرض.

٩. يحيى بن زكرياء (ع) يقتل.

١٠. محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يعاني من معظم الشرور.

وهكذا كل إنسان لابد وأن يتجرع من غصص الحياة ما يجعله يعيش على محك الامتحان والاختبار والابتلاء.

* * *

[الباب الثاني صراع الحق والباطل]

يظهر لنا من خلال ما تقدم من سلوك سوي لهذا الإنسان، ومن سلوك فوضوي معوج ضلال، أن هناك انقساماً، وتبايناً، أدى إلى ظهور حالة تصادم وتماس بين هذين السلوكين، فالسلوك السوي المستقيم يصاب بحالات اعتراض من قبل السلوك الأعوج، ومن جميع الاتجاهات، وهذه الحالة من التضاد، والتصادم، والتماس، تأتي كنتيجة حتمية لواقع خطوط الاعتراض، التي أوجدتها الحالة الفوضوية في السلوك، مما أدى إلى حالة من التصــادم، والعداء بين البشر، انقسمت لأجلها البشرية إلى قسمين متباينين.

ويأتي إبليس ليمثل هذا الخط الأعوج ، فيعلن عن خطته التي سيقوم بتنفيذها، ليصنع منها حالات الاعتراض، لمن يسير في الخط المستقيم **{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**[الأعراف:١٧].

وهذا الوضوح في السلوك المتباين والتمايز الظاهر لهذين الخطين، جعلا لكل سلوك دلالة لفظية، وتعريفاً خاصاً، حيث عبر عن الاستقامة بالحق، وعن الاعوجاج بالباطل، ومن ثم ارتفعت حالة الابتلاء، لتصل إلى الإنسان مع نفسه، في شكل تنازع، وتجاذب، وعداء، ومعترك واسع.

يقول تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}**[الفرقان:٢٠]، وأصبح الصراع بين الحق والباطل، واقعاً حياتياً محتماً، وصارت حركة كل فرد محسوبة لهذا الخط أو لذاك، صغرت تلك الحركة أم كبرت، وكما أوضحنا فإن الفوارق معنوية؛ لأن التمايز لم يتم إلا من خلال تلك المواقف،وذلك الفرك والاعتراك، والمتاعب بين هذين الخطين شبه متساوية، حيث لا يصير الرابح رابحاً إلا من خلال موقفه الحق، والخاسر خاسراً إلا من خلال موقفه الباطل، ولنضرب مثلا لحالة المتاعب هذه التي تنتجها حالة الصراع - في قصة حروب الرسول (ص) - مع المشركين، حيث وقع القتل والإصابات في الطرفين، سواء المقل، أو المكثر، فإنا سنجد المحق شهيداً، حيث يعتبر رابحاً، والمبطل مفقوداً خاسراً لأنه لم ينطلق إلا من حالة الاعتراض الفارغة عن الهدف الأسمى، قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا }**[النساء: ٧٦]، ولكنه قد سبَّق بذكر الرابح، في قوله تعالى**{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}**[النساء: ٧٤].

وكذلك الأمر بالنسبة للإنفاق بالمال وغيره من قبل الطرفين، حيث يتم دفع المبالغ الطائلة في سبيل هذا المعترك، من قبل كل طرف، ولكن المنفق في سبيل الحق يكون مأجوراً، ومخلوفاً عليه في الأولى والأخرى، يقول تعالى**{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة:٢٦٢]،

وبهذا الوصف أي كون الإنفاق في سبيل الحق ربحاً لا خسارة فيه،وبالمقابل، فإن الطرف المنفق في سبيل الباطل، يكون خاسراً، ومعاقباً، بما قدم من مال، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}**[الأنفال:٣٦].

وكذلك الأمر بالنسبة للإشاعات وما يذاع من كلام، فإن الموقف الحق يأتي من خلال القول السديد، أما الموقف الباطل فسيأتي من واقع القول الضار، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}**[الأحزاب: ٧٠]،

وقال:{ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء}[إبرهيم:٢٦]،

ويقول تعالى:{إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ}[النحل:١٠٥]،

وكلها أقوال، وألفاظ، يمكن لمعظم الناس أن ينطقوا بها.

ومن هنا يتضح أن الصراع مستمر باستمرار الحياة، وأن المتاعب شاملة لكل فريق، المحق، والمبطل، حيث لا يصح أن يقال: بأن المحق يجب أن يكون سليماً ومعافى من هذه المتاعب لأنه من أولياء الله، وكذلك الأمر بالنسبة للمبطل المتهرب من واجبات التكليف، وتحمل المسئولية، عليه أن لا يظن أنه بذلك التهرب يكون قد خرج عن واقع الابتلاء والمسئولية، والمعاناة، فهل هنا من يعي قانون الحياة، ويفهمها؟.

الرابح والخاسر:

الفارق بين المحق والمبطل، فارق معنوي - في الأكثر- وهذا الفارق المعنوي، هو الذي يحدد من هو الخاسر، ومن هو الرابح، في هذا المعترك الواسع.

١. وبلا شك فإن المحق هو الرابح؛ لأنه إضافة إلى شمول البلوى له والمتاعب كأي إنسان آخر، إلا أنه يشعر بالطمأنينة النفسية ، وبإحرازه مكاسب كبيرة، وعظيمة، الأمر الذي يعني تزوُّدُه بطاقة دافعة من صبر، وصمود، وجلد، واستمرارية على موقفه الحق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

}[آل عمران: ٢٠٠] ،
يمكِّنه ذلك من التفوّق، والتغلب على خصمه المبطل، إضافة إلى ما قد يناله من توفيق، وإعانة ونصر، من قبل وليّه الأعلى- عز وجل-، وهذه المعنويات الهائلة يفقدها المبطل تماماً، ولذلك فسيكون وبلا شك خاسراً، يقول تعالى: { وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء:١٠٤]،

وهنا يمكنك ملاحظة التشخيص الدقيق لهذه الحالة التي شرحناها، من واقع هذه الآية الكريمة، حيث نبهت على استواء الآلام، بين الطرفين وإضافتها عبارة، - وترجون من الله ما لا يرجون -، موضحة للمؤمنين بأن هذا ربحكم الزائد على خصومكم المبطلين - ويقول تعالى:{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

}[البقرة:١٥٧].

وهذه الحالات، التي ذكرتها الآية من الخوف، والجوع، ونقص الثمرات، والأنفس،والثمرات، تشمل كل فريق، إلا أن فريق الحق كسب الموقف لصبره، وصموده أمام نوائب الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام، وعبر عنه بقوله:**{إنا لله وإنا إليه راجعون وما بشره به من الصلاة والرحمة وانه فعلا على الهدى يسير}**، ومعنى ذلك أنه مسلِّم أمره كله لله، وأنه سيبقى كما هو، على الحق، لا يتزحزح، ولا يتراجع، لأنه الأربح، ولأنه يجب أن يصبر، بينما الطرف المبطل سيحصل عليه كل ذلك العناء، وسيكسب إضافة إلى حالة المعاناة هذه، الجزع، والهلع، واليأس، وبذلك يتحقق خسرانه بلا إشكال، لأنه فقد أشياء ولم يحصل على أي مقابل، وهذا عين الخسران.
وكذلك الأمر في كل المواقف، وفي كل حركة يتحركها الإنسان، كما سلف لن تخرج عن هذين الموقفين، بل حتى كل غريزة تثار في داخل هذا الإنسان، فتخلق لديه موقفاً، فإنها تعتبر محسوبة له أو عليه كالكراهية، والمحبة،والود، والكبر، والحسد، وما أشبه.

ومن هنا وعلى ضوء ما سبق ذكره يظهر بأن الإنسان هو الصانع للمواقف الحقة، قد ثبت - ومن واقع التجربة - بأنه الذي حقق الهدف الذي أنشئ هذا الخلق من أجله، وبذلك علت قيمته، ورفعت درجاته، وكرم التكريم الأخص الخالد فربح.

بينما نجد الإنسان المعاكس في مواقفه، والمتمرغ في باطله، قد أثبت - وبالتجربة - بأنه قد صار عبئاً على الحياة، ومصدر إزعاج لهذه الكائنات، أخفق في مهمته، وفشل في تحمل ما كلف به، فخسر.
روي أنه مُرَّ على رسول الله (ص) بجنازة فقال: (مستريح أو مستراح منه. فقيل: يا نبي الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ فقال: المستريح، العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا ولأوائها وأذاها إلى راحة الله تعالى، والمستراح منه العبد الفاجر تستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب)[الإعتبار وسلوة العارفين: ٩٨]

الإنسان والإيمان:
وبعد سقوط اعتبار المبطل، وظهور المحق كخط مؤثر ومسئول، أصبح هذا الخط وكأنه الممثل لمجموع البشرية وستتجه نحوه الرسالة لتلقي بكل ثقلها عليه لأنه هو المستحق لخيرها وبركاتها والقادرعلى تنفيذ توجيهاتها، وإقامتها.

وتبدأ في توجيهاتها له من جديد، تبدأ في مشوارها معه، وكأنها قد عافت الآخرين، وصرفت وجهها عنهم، وإن لم تكن هي كذلك، بل إنهم هم المعرضون.

يقول تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ،إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ،

}[العصر]،مع ما فيها من الدعوة بعبارة { يا أيها الذين آمنوا} وفي معظم توجيهاتها وأوامرها.

لقد جاءت هذه السورة الكريمة، بصورة مصغرة، ومضغوطة جداً لبرنامج الرسالة، وقاعدة العمل الصالح، باتة بقسم، وقاطعة، بخسارة هذا الإنسان، كل الإنسان، عدى من توفرت فيه تلك المواصفات، من إيمان، وعمل صالح، وتواصي بالحق، والصبر؛ ولأن الإنسان أي إنسان وخاصة ذلك الفوضوي قد يصدر منه أعمال صالحة، إلا أنها غير مقبولة منه يعطى عليها الاجر والقرب من الله تعالى، ما لم يكن منتظماً في خط الله تعالى.

ومن شروط الانتظام الإيمان، والإيمان يكتسب من خلال دلالة الخلق، وتذكير الرسالة وتعاليمها، كما تقدم، وهذه الدلالة من أساسيات رسالة هذا الكون، ورسالة الرسل، ووحدة الخلق، كما تقدم.

والإيمان عامل فصلٍ ثاني بين العملين الصالحين، ولأن الإيمان يعبر عن إعلان الولاء لخالق هذا الكون والانضمام في سلكه، فلن يقبل أي عمل وإن كان صالحاً، إلا من خلال هذا الإيمان،

فالعمل الصالح، طاقات يجب أن تصب في خط الله لتنتظم مع الطاقات الأخرى الموجهة وفق الخطة الرسالية، يقول تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ}[إبراهيم: ١٨]،
فالإيمان هو القاعدة الصلبة التي ينطلق منها العمل الصالح، والطابع الذي يقبل بموجبه ذلك العمل، ولذلك نجد معظم الآيات القرآنية التي تتحدث عن العمل الصالح تسبقه بذكر الإيمان- مثل {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[فصلت: ٨].
والإيمان الذي يتمخض عن دلالة الخلق، وتذكير الرسالة، هو اليقين بوجود الخالق الفاطر، وتوحيده عن الأمثال والأنداد، واعتقاد وجوب طاعته، وصرف الوجه نحوه، كما في قصة النبي إبراهيم (ع)

كما يتمخض- أيضاً- عن تنبيه الرسالة إلى المُشَاهَد المحسوس، وتصريحاتها عن ما غاب عن الحواس.
وعنه (ص): (الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان) [أمالي المرشد بالله ج١ ص ٢٤].

الإنسان والعمل الصالح:

ويقصد بالعمل الصالح في التعريف الديني، كل فعل حسن يفيد الناس،من نحو بناء الطرق، أو تقديم الخدمات الصحية والعلمية،والمالية، والغذائية والأمنية،وغير ذلك من فعل الخير، وكل فعل شمله الأمر أو الندب من الأفعال، وكل ترك شمله النهي أو الكراهة من المتروكات، فهو كل عمل بنَّاء، سواء كان فعلاً، أو تركاً، أو علماً، أو غريزة مؤثرة، وهو الهدف الذي خلق الإنسان في هذه الدنيا لأجله، قال تعالى: **{تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة، ليبلوكم أيكم أحسن عملا}**[الملك:٢]، والعمل الصالح ،يشمل العبادات، والمعاملات، والمعتقدات، والمواقف، وهو قرين الإنسان، وصاحبه، وأنيسه، ورفيقه في رحلته الطويلة؛ ذلك لأن الإنسان سيترك خلفه حين رحيله إلى العالم الآخر، كلما يعز عليه تركه وفراقه، من ألأهل والأولاد،والقرابة، والأموال، وكذالك المعنويات، من جاه وسلطان، ونفوذ، وكل وسائل الدفاع والحماية، من أهل وولد وعشيرة وقرابة، وصحبة، ورفاق، وصداقة، تتخلى عنه، وتسلمه، ويبتعد هو عن كل شيء، وتنقطع بذلك كل العلاقات الودّية، والحميمة، ليلقى وحيداً منفرداً، منفصلاً عنها ساعة خروج روحه، ويذهب إلى حيث لا صاحب له ولا حميم، ولا أنيس، سوى عمله الصالح الذي يصاحبه في غربته الطويلة، ويؤنسه في وحشته، ويدفع عنه ويحميه، إلى أن يوصله إلى دار، وأهل، ومال، وجاه، وملك، وعزة، ورفعة، ونعيم دائم لا ينفد، ولا ينقطع أبداً، يقول تعالى: **{**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا

جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا

}[النباء: ٣١-٣٦] **ويقول:{** تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**}**[الشورى:٢٢].

مع ما سيحصل عليه ذو العمل الصالح في الحياة الدنيا من مكاسب مادية ومعنوية لا تنكر، نتيجة لأعمالهم الصالحة، كما قال تعالى: **{**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**}**[مريم: ٩٦]، ويقول: **{** وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**}**[النور:٥٥]،

ويقول تعالى: **{**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**}**[الأعراف: ٩٦].

وتنعكس المعادلة تماماً بالنسبة للإنسان العاصي، وهو السلبي الذي لم يحقق الهدف الذي خلق من أجله، فهو لم يعمل الأعمال الصالحة التي كلف بعملها، أولم يترك الأعمال السلبية التي نهي عنها، أو عمل بصورة فوضويّة، فهو يصلح ويفسد، ويبني ويدمر، فهذا النوع من البشر، قد آثر الدنيا على الآخرة، وأهواء نفسه على رضا خالقه، واستغنى بالعاجل عن الآجل، واعتبر دار الاختبار، والاعتبار، دار القرار، فهو يعيش

في حالة من قلب المفاهيم، وغفلة عن طبيعة القوانين، لكنه مع ذلك ليس نعامة يدس رأسه في التراب ـ كما يقال عنهاـ إنه إنسان عاقل، ولكنه، فوضويٌّ متمرد، إنه الخاسر، يخسر الدنيا لأنه لم يحقق فيها مطامع نفسه، ولم يخلد فيها فيحتفظ بذاته، فلم تبق له ولم يبق هولها، وهذه غاية الخسران، فضلاً عما أعده الله له من الجزاء الوفاق، يقول تعالى في من هذا شأنه: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا

}[الكهف: ١٠٤]،

كما أن ما شغل به نفسه من أهلٍ، وولد، وممتلكات وغير ذلك من مقوّمات الحياة، سيتلاشى ويذهب عنه بعيدا، وحتى لو حاز العالم فإنه حينئذٍ لن يفيده في شيء فعن القرابة الذين قد يعصي الإنسان ربه لأجلهم، يقول تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}

[عبس:]، كما أنه لو اجتمع لأجل إنقاذه من عقاب ربه وجزائه، خلق الله أجمعين، وجثى الكون ومن فيه بأكمله بين يدي الرب تعالى، ليجعل من نفسه فداءً له لينجيه من جزائه المعدِّ له في حكم الله، ما قبلت فديتهم، ولا شفاعتهم، قال تعالى: {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى

}[المعارج:١١]،

ويقول معبراً عن رغبة هؤلاء العصاة في الفدية بما يملكون لو يملكون شيئاً: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }[يونس:٥٤]، ويستوي في اليأس هنالك الكفار والعصاة من المسلمين، يقول تعالى في شأن الكفار:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}[آل عمران:٩١]،

بل لقد أمر الله النبي(ص) في أن يعلن ما لو أنه عصـــى ربه لما أنجاه من عقاب الله منجي أبدا، يقول تعالى آمرا له بإبلاغ ذلك للناس حتى لا يعيشـــوا في الأوهام، والأماني، كما عاشها بنوا إسرائيل، {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[الزمر: ١٣] و {قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّـهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا }[الجن: ٢٢]، هذا هو النبي المجتبى لتبليغ الرســـالة، والمؤتمن على الوحي، لن يجد يوم الجزاء من يشـــفع له فيما لو عصى ربه فكيف بغيره من الناس .

العمل والجزاء:

الجزاء هو النتيجة الحتمية للعمل في ميزان العدالة الإلهية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومن هنا فلا فوز ولا فلاح ولا نجاح، إلاّ بالعمل الصالح، فلا محاباة، في عدل الله، وحكمه، لأن الخلق كلهم عباده، يقول تعالى: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا }[مريم: ٩٣]،

فالملائكة والأنبياء، والشهداء والمسلمون والكافرون، كلهم يحشرون إليه، وهم عبيد حيث ليس لأحد هناك أمر ولا نهي، يقول تعالى:{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

}[الفرقان: ٢٦]

هناك ستتلاشى كل الاعتبارات، ما عدى اعتبار الأعمال، فالجنة بالعمل بالنسبة للمكلفين، والنار بالعمل كذلك، يقول تعالى: { يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[الزلزلة: ٧]، ويقول: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ}[الجاثية:٢٨].

وهؤلاء أهل الجنة يعلن لهم فيها هذا المبدأ، الذي عوملوا عليه في المحشر أثناء الحساب، ودعوا إليه في الدنيا من قبل، تأكيداً لهم، عليه، حتى تتأكد لهم عدالة الله تعالى، وينزاح عنهم أي وهم عن المحاباة لهم على غيرهم، أو إنكار لجهودهم، أو ما أشبه مما يكون لذكر ذلك هناك فائدة عظيمة قد لا نعرف في الدنيا مداها، يقول تعالى بهذا الخصوص: {الأَخِلاَّء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ، يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}[الزخرف: ٧٢].

كما أن أهل النار يعلن لهم فيها نفس هذا المبدأ، ليعلموا أن الله لم يظلمهم، وإنما هم الظالمون لأنفسهم، وليتأكد لهم عدل الله، وما أشبه من الفائدة التي يدركونها هنالك، يقول تعالى: { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

}[السجدة:١٤]، ويقول : { وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[النمل:٩٠]،

وهي كثيرة تلك الآيات التي تتحدث عن هذا المبدأ وتؤكده، لأنه قد ضل عنه بنوا إسرائيل، وتعلقوا بالأوهام والتمنيات، حيث غرّوا أنفسهم بها وبما اخترعوه من أقوال: كقولهم بخروجهم من النار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فراحوا يقترفون الكبائر، ويكتسبون المآثم، ويقتلون الأنبياء، اتكالا على تمنياتهم، { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }[آل عمران:٢٥].

ومبدأ العمل الصالح، فاصل ثالث، لأن المؤمن العاصي قد أصبح تابعاً لخط الباطل بعصيانه، ذلك لأن من شروط النجاة والفلاح إضافة العمل الصالح إلى الإيمان المعرفي، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٨٢]، ويقول تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ،ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ}[آل عمران:٥٧]، وقد وردت العبارتان مقترنتان في القرآن حوالي ثمان وثلاثين مرة.

* * *

[الباب الثالث قدسية المسلم]

تقدم الحديث عن الإنسان بصفة عامة وما له من حرمة وكرامة، وفي هذا الباب نتحدث عن حقوق المسلم بصفة خاصة، فالإنسان المسلم يتمتع بحقوق كثيرة أعلنتها الرسالة في بنود عدة: فهو وإن كان مشتركا مع عامة البشرية في - حرمة دمه ـ وعرضه ـ وماله ـ إلا أنه وبسبب زيادة الإيمان الذي به كان مستقيما وعادلا وصادقا ومنصفا إلى آخر الأخلاق الإيمانية، صار أكثر حرمة وأعلى كرامة.

يقول تعالى: **{** وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**}**[النساء:٩٣]

ويقال: أن قاتل المؤمن لو قتل البشر جميعهم ما كان جزاؤه أكثر من هذا.

وعنه(ص):(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت عليَّ دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله) [أمالي المرشد بالله-ع-ج١ص٣٢]،

وعنه (ص): (إن المؤمن يعرف في السماء كما يعرف الرجل في أهله وولده، وأنه أكرم عند الله من ملك مقرب) [صحيفة الإمام علي بن موسى الرضا-ع-ص٤٧٢]

وعنه (ص) قال: (ليس منا من غش مسلماً أو ضره أو ماكره) [صحيفة الرضا، ص٤٨٩]، وعنه (ص) وهو يطوف بالكعبة ويقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيرا)[ابن ماجه]

ويقول الإمام علي(ع) في عهده لمالك الأشتر (رض): (وإياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها) [نهج البلاغة:٣٨١]

ويقول (ع): (وفضَّل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب)

[نهج البلاغة:١٩٩]، فالمسلم ذات، ومعنويات مكرمة، ومحترمة، دمه، وعرضه، وماله،ومشاعره، للاعتبارات المتقدمة، بالنسبة للمسلم الفرد، ولكونه أحد دعامات المجتمع الفاضل، على أنا لا نرى أن بقية الناس من غير المؤمنين، يجوز قتلهم وخيانتهم وهتك أعراضهم، وأخذ أموالهم، بغير حق فقد بين ذلك أمير المؤمنين علي (ع) حيث قال للأشتر: فإنهم إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.

فلا يظن بنا سوءا، ولكنا نذكر مقام المؤمنين، وقدسية المسلم بما يزيد لهم من الذكر، في مواضع أخرى غير الحقوق الإنسانية العامة.

المسلم وبناء المجتمع المثالي:

فلأن الإسلام يهدف في نهاية المطاف إلى خلق مجتمع مثالي متراص، ومتناسب، ومتعاون، فقد وجه التوجيهات البناءة كخطة لإنجاح هذا البناء، وشدد على ترك كل ما من شأنه عرقلة هذا المشروع، أو تدميره، شاملاً بتلك التوجيهات كل فرد في المجتمع، باعتبار الفرد الواحد

أحد لبنات هذا البناء، ومما ركز عليه في خطته البناءة، الجانب الإعلامي، حيث أوضح مضاره، وفوائده، والتي تنتهي إلى إبعاد حالات القلق، والانزعاج عن المجتمع؛ لكي تسود حالة الهدوء، والطمأنينة والسكينة، كل أجوائه، فينعم الناس بجوٍّ اجتماعي هادئ، ومطمئن؛ ولئلا ينشغل الذهن عن العبادة التي خلق الإنسان لأجلها، ومن التفكير والنظر، واكتساب المعارف المتعددة، والمتنوعة، والعطاء الفكري والعملي، وليحافظ على تنمية سيادة الثقة، والمحبة، اللتين تعتبران من مقومات التعاون الاجتماعي، والولاء، والعمل المشترك.
وليسير المجتمع في طريق الترقي، والتوسع والنمو، عن طريق إشاعة الإيجابيات، وتكريم الإنسان المسلم، فالصلاة الشكلية الجوفاء هي تلك الحركات من قيام، وقعود، وذكر، الخالية عن الجوِّ الروحي، والانغماس النفسي، والتمتع بلقاء المعبود ومخاطبته تعالى.
هذه الصلاة علتها الشرود الذهني، وانشغال البال بالأجواء القلقة المضطربة، حيث يخرج المصلي من صلاته تلك ولم يعلم ما كان يقول فيها، يقول تعالى: **{** يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**}**[النساء: ٤٣]

والقراءة والتفكر وما أشبه من الأعمال الفكرية التي يقوم بها العقل في حالة من التشوش، والانشغال، لاشك في أنها ستتأثر سلبا، وينتج لذلك أعمال غير كاملة، ولا مفيدة، بل وقد تكون بعض النتائج مشوبة بالأخطاء، - وقد أمر الله نبيه محمد(ص) بالتعوذ من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس،- أو أن تهدر تلك الطاقات الفكرية التي يفترض أن تصب في قوالب البناء، وتتحول إلى محاولات لإصلاح ما فسد، أو تدارك ما قد يفوت، وبذلك يتوقف العطاء الذي يبني المجتمع وينميه، ومن هنا تبدأ عملية تجمد الأمة وبِلاها، فذلك المناخ الاجتماعي الملوث، والملبد بسوء الظن، وانعدام الثقة، والاشمئزاز، والنفور، والريب، والحسد،لا يمكن أبداً أن ينمو فيه روح التعاون، والبناء، وحب المساعدة، أو تقديم الخدمة، أو إسداء النصيحة للآخرين، بل لا يمكن فيه النمو العلمي، والثقافي والتربوي، ولا حتى النمو العمراني، والخدمي، ولا النمو الأمني والاطمئنان النفسي، - وأنا أعتقد أن هذا المناخ القاتل، هو السائد على مجتمعنا، وأنه داءه، وخلته، ولذا جاء القرآن الكريم ليحذرنا وينهانا عن زراعة ما تكون ثمرته مثل هذه الأمراض قال تعالى: **{** يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ **}** [الحجرات: ١٢] **{** وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ

هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**}**[القلم:]

وفي الحديث عنه (ص): (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على ما إن فعلتموه تحاببتم؟..، قالوا: بلى يا رسول الله، قال : أفشوا السلام بينكم ، وتواصلوا، وتباذلوا) .
والمجتمع بحاجة إلى التقدم المتواصل بتواصل حياة الإنسان، وعلى جميع الميادين الفكرية، والسلوكية، والخدمية، والعمرانية؛ ذلك لأن التكاثر العددي للمجتمع يفرض حاجات خدمية، وفكرية، وسلوكية، وما أشبه.
والنماء الاجتماعي الثابت، هو ما يقوم على أساس قوي من الأخلاقيات، والسلوكيات الصالحة، قبل كل شيء، وكل نماء سواء كان علمياً، أو زراعياً، أو تجارياً، أو مهنياً، أو

خدمياً، وكذلك الأمني، لا بد وأن يقوم على هذا الأســـاس، وشـــيوع الأمانة، والاحترام، والحب، والرحمة، والثقة، واللين، والصدق، والوفاء، والتطلع نحو الأفضل: إلخ
وإلا سقط المجتمع، وتهاوت بناياته، ليتحول إلى جمود قاتل، وإلى ركام من الآلام، والأنين، حيث الجريمة، من قتل ، ونهب، وســـرقات فردية، ومنظمة، ونزوع نحو الانتقام، حيث يغرق المجتمع في بحر من البغض، والكراهية، والحسد، والقسوة، والسخرية، والعداوة، ووإلخ.

أو يأتي القانون ليفرض العقوبات القاســـية، محاولا إيقاف التدهور الاجتماعي المزعج، وليحافظ على النمو الاقتصـــادي والخدمي، فيتحول هو الآخر إلى شـــبح رهيب ومخيف، حيث الســـجون تضـــج بعامريها، وفرض الآداب والضـــرائب الباهظة لتغطية التكاليف، ونفقات بعض تلك المحاولات البائسة.

ولهذا فقد جاء القرآن الكريم، ومن خلال توجيهاته بأخذ جانب الأخلاقيات المثالية، والابتعاد عن جانب الأخلاقيات الذميمة، لينبهنا إلى نظرية اجتماعية هامة، وهي: أن المجتمع يتأثر بما يشاع فيه سلبا، وإيجاباً، وأن مناخه العام يتحكم في الأكثرية الساحقة من أفراده، فشيوع الفضيلة وإذاعتها والتحدث عنها بإعجاب وإجلال، وتعظيم من يتحلى بها - أياً كان- يجعل المجتمع توَّاقاً إلى تعاطي تلك الأخلاق، ويحاول أن يجسدها في حياته ويتقمصها في سلوكه، ولو عن طريق التقليد، والتباهي بها في بداية الأمر، ثم تتحول ومع مرور الوقت إلى سجية وسمة للمجتمع ينمو عليها، ويطمئن بها، ويحميها ويدافع عنها، لاحظ ما يقوله القرآن الكريم حول نمو الكلمة، {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}[إبرهيم: ٢٦]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: ٧٠]، وقال: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا }[النساء: ٩]

وبالعكس تماماً عند إشاعة السلبيات.
فبنفس التأثر الإيجابي- بل وأســـرع - يكون التأثر الســـلبي الذي يأخذ بالمجتمع نحو الانحطاط شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى حالة العناء، والشقاوة، لاحظ إشارة القرآن الكريم، إلى تأكيد هذه النظرية:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِـــيعَ الْفَاحِشَـــةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ }[النور: ١٩]، وعن النبي(ص): (ألا ومن سمع بفاحشة فأفشاها فهو كمن عملها)[شمس الأخبارص١٨٧]،
ذلك لأن الإشاعات - وكما أوضحنا- تدفع بالمجتمع إلى ممارسة ومعايشة ما يشاع، ولو بصـــورة تدريجية، وما من مرض اجتماعي إلا وله ســـبب من الإشـــاعات، وما من نماء اجتماعي- أيضاً- إلا وبدايته إشاعة وإذاعة صالحة.
وهذه الوسـيلة - الإشـاعة - يسـتغلها أعداء المجتمع أو مسـتغلوه للتفرقة، والتشـتيت، وتخريب المجتمع المسلم، كأفضل وسيلة، وأسهل طريقة.

ولهذا ومثله فقد وضع القرآن الكريم، خطة إعلامية، واضحة، تهدف إلى بناء المجتمع، وحياطته، عن عوامل التآكل والخراب، فمن ملامح هذه الخطة، أنها قامت على تزويد الفرد - على طول وعرض قاعدة المجتمع - الفرد والجماعة القيادة، بما يرفع من مستوى وعيها الإعلامي، داخل المجتمع، عبر توجيهات قيمة،والتي منها ما يلي:

أ – الحظر النهائي:

وهو الترك القاطع عن ممارسة الإشاعات السلبية، وذلك عن طريق حفظ اللسان وصونه عن إذاعة السلبيات، وإشاعتها في المجتمع، سواء كانت تلك السلبيات مما يتعلق بالفرد أم بالجماعة، وسواء كان المشيعون أفراداً أم جماعات.

ويتناول هذا الحظر، الإشاعات وأسبابها، كسوء الظن، والتجسس، باعتبارهما الأرضية الخصبة لنمو الإشاعات، فمن ساء ظنه بك دفع به ذلك الظن إلى التجسس عليك، وتتبع أخطائك، ومن ثم إشاعة تلك الأخطاء.

تتكشف لك هذه الترتيبة، ويتجلى لك ذلك الحظر من قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }

[الحجرات: ١٢]، ويشمل هذا الحظر، الظن السيئ بالناس، والتجسس عليهم، والغيبة، واللمز، والهمز، والتنابز بالألقاب، والسخرية، والكذب، والنميمة ، وما أشبه.

وأساس هذا الحظر، تكريم الإنسان، والحفاظ على كرامته، وقيمته، ومشاعره، ومكانته في مجتمعه، وتماسكه ووحدته، مما يعطينا معرفة واضحة بعلو قيمة الإنسان عند الله تعالى، إلى المستوى الذي يذهل المتأمل، ولا يصدقه الغافل، كما أنها تعطينا معرفة أكثر بتلك القيمة، ربما من خلال نظرتنا القاصرة إليها كأمور صغيرة، وغير ذات أهمية، فما هو الظن السيئ، في جانب القتل؟ وما هو التجسس في جانب النهب؟ أقول: نعم تلك كبائر، لكن وهذه كبائر- أيضاً- ولا يقل خطر هذه عن خطر تلك، إنها تقتل المجتمع، في وحدته، وتماسكه، وتعاونه، وأخلاقه، وسلوكه، الخ... فهي ليست صغيرة في أثرها وضررها، ولكنها سهلة في تعاطيها، وممارستها،

ب – التعريف بهذه المحظورات:

الظن السيئ: سببه مرض دب في داخل النفس، فحطم الشعور بالثقة، وحول النظرة إلى الناس موحشة جداً، فيدفع بصاحبه نحو التجني على الناس، بالغيبة، والنميمة، واللمز،... الخ.

وقد شنع القرآن الكريم على العاملين بالظن، وعلى المعتمدين عليه كمصدر معرفي، فقال{إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى

وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}[النجم:٢٨]

وفي الحديث عنه (ص): (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)، ويقول الإمام علي (ع): - ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن، [نهج البلاغة]

التجسس: يقول الإمام زيد بن علي(ع): هو البحث.

وهو تتبع شؤن الناس الخاصة، والإطلاع على معا يبهم، وعنه (ص): يا معشر من آمن بلســـانه، لا تغتابوا المســـلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه وهو في جوف بيته)[المرشد بالله: ص ٢١٥]

الغيبة: يقول الإمام زيد بن علي(ع) في تفسير **{** وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**}**، قال: لا تذكر من أخيك قبح فعله.

وعنه(ص) حين سئل ما الغيبة يا رسول الله؟ قال: (أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع، قال: وإن كان حقاً؟ قال رســول الله (ص): إذا قلت باطلاً فذلك البهتان)،[أمالي أبي طالب: ص٥٥٣]

ومن عظم إثمها، أنها أشـــد إثماً من الزنا، وأنها لا تقبل توبة الغياب حتى يتوب عليه من اغتابه،

فعنه (ص) أنه قال: (الغيبة أشـــد من الزنا، إن الرجل يزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وصاحب الغيبة لا يُغفَرُ له حتى يَغفِر له صاحبه)

[الأمالي ص٥٥٤]

وعنه (ص) : (من أربا الربا الاستطالة في عرض مسلم بغير حق)

[شمس الأخبار:]

ويقول الإمام الصادق (ع): (الغيبة حرام على كل مسلم مأثوم صاحبها في كل حال).

وقد كان العلماء، والصـــالحون، يخافون من الغيبة جداً حتى أنه يحكى عن ابن ســيرين أنه حين مرض دخل عليه طبيبان نصــرانيان، حتى إذا خرجا من عنده، قال لجلســائه: لولا أن تكون غيبة لأخبرت أيهما أطب.

وقال أحدهم: لو اغتبت أحداً لاغتبت أمي، لأنها أولى بحسناتي.

اللمز: في تفسير آية **{** يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ **}**[الحجرات: ١١]،

يقول الإمام زيد(ع): لا تعيبوا - يعني لا يَعِبْ ولا يطعن بعضكم في بعض.

واللمز والهمز متقاربان في المعنى، يقول الزمخشري، في تفسير الهمزة: المراد الكسر من أعراض النـاس، والغض منهم، واغتيـابهم، والطعن فيهم، وتعني كلمـة الطعن في النـاس بذكر معا يبهم، وكشف مستوراتهم، وهتك أعراضهم، قال الشاعر:

** وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة **

يقول تعـالى: **{ويـل لكـل همزة لمزة }**[الهمزة:١]، موعِّداً، ومهدِّداً، لهؤلاء الهمـازين بالنار الحطمة، التي يحطم بعضها بعضاً لتغيظها وزفيرها، نعوذ بالله منها.

وقد يدخل تحت هاتين الصـــفتين الممقوتتين، عادة الســـباب، والســـباب إثم كبير، فعنه(ص):(سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر)[أمالي أبي طالب].

وعنه (ص) قال:(ومن مشـى في عيب غيره، فكشـف عورته، كان أوّل خطوة يخطوها من موضع قدميه إلى النار، وكشف عورته على رؤوس الخلائق)،وقال (ص):(ألا ومن سمع فاحشة، فأفشاها، فهو كمن فعلها) [شمس الأخبار].

ويقول فيلسوف الإسلام، الإمام علي(ع) موجهاً خطابه للغيابيين ممن يرون أنهم صالحون، وعلى خير: (وإنما ينبغي لأهل العصـمة، والمصـنوع إليهم في السـلامة، أن يرحموا أهل

الذنوب والمعصـــية، ويكون الشـــكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيره ببلواه، أما ذكر ســـتر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به، وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله، فإن لم يكن قد ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله فيما هو أعظم منه، وأيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أكبر، يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه، فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته، مما ابتلي به غيره) تأمل أخي هذا الكلام النوراني، وردد قرائته.

التنابز بالألقاب: يفسرها الإمام زيد(ع) قائلاً: لا تقولوا يا كافر، يا فاسق.
وبعض المفسرين: لا يدعُ بعضكم بعضاً بالألقاب المستكرهة.
ويقول الزمخشري: والنبز لقب السوء، والتلقيب المنهي عنه ما يتداخل المدعو به كراهة، لكونه تقصيراً به، وذماً له، وشيناً.
وعنه (ص):(من حق المؤمن على أخيه، أن يسميه بأحب الأسماء إليه)[الكشاف :ج٣ص٥٦٦].
السخرية: هي الاستهزاء بالآخرين، قال الزمخشري مشيرا إلى سبب نزولها: روي عن الضحاك أن قوما من بني تميم استهزءوا ببلال، وخباب وعمار، وصهيب، وأبي ذر، وسالم مولى حذيفة، فنزلت الآية المذكورة، وعن عائشة: أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة، وعن ابن عباس- رض-: أن أم سلمة، زوج الرسول (ص) ربطت حقويها بسبيبة، وسدلت طرفها خلفها، وكانت تجره، فقالت عائشة، لحفصة: أنظري ما تجر خلفها، كأنه لسان كلب.
وعن أنس: عيرت نساء رسول الله (ص) أم سلمة بالقصر.- تفسير الزمخشري [ج ٣ص ٥٦٦].

ويبدو الاستهزاء بالآخرين، دليل على التكبر وهو من أعظم ما شنع الله به، على قدوة المتكبرين- إبليس لعنه الله - والذي يظهر أن التكبر حالة نفسية، تتنافى واستشعار العبودية لله تعالى؛ لأن المتكبر يرى نفسه أعظم من الآخرين، وأفضل، ويتعامل معهم بتعالٍ عليهم، واستصغار لهم، واحتقار، وأعلى أن ينفذ بعض ما طلب منه، وهو يصادم قول الله تعالى: { إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا }
[مريم ٩٣].
فالعبودية، صفة تشمل جميع العباد، والتكبر: ترفع وتعالي فوق العباد، وهي صفة تخص الكبير المتعال عز وجل.
وهذه الحالة النفسية، من التكبر، عنوانها- أنا خير منه - كما قال إبليس، وقد لا يسلم منها إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، فعنه (ص): (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر) [المرشد بالله].
وفي خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام التي يذكر فيها ابليس على تكبره :(الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده- ثم مضى في سرد قصة

السجود لآدم وسجود الملائكة أجمعين- إلى أن قال: إلا إبليس اعترته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المتكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبرية، وادرع رداء التعزز، وخلع قناع التذلل،- ثم بين ما آل إليه إبليس لتكبره- ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيراً)- [ص٢٨٨نهج البلاغة].

ثم واصل كلامه عن تكبر إبليس والتكبر: (فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وقد كان عبد الله ستة آلآف سنة، لا يدرى أمن سني الدنيا أم سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته) [نهج البلاغة٢٨٩].

ويقول: (فلو رخص الله في الكبر لأحدٍ من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه، وأوليائه، ولكنه سبحانه كرّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين).

النميمة: وهي نقل الحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، وقد شنع القرآن الكريم على المشَّائين بالنميمة، ووجه الرسول (ص) إلى رفض الاستماع لهم وطاعتهم، وهي من أهم الوسائل المفسدة لذات البين، والتي يستخدمها الفاسقون والظلمة بكثرة.

مع أنها خطيرة جداً على وحدة المجتمع، فإنها كذلك أيضاً لدى السلاطين، الذين يستمعون المشَّائين بالنميمة، والوشاية إليهم، كونهم قد يظلمون الناس بسببها، ولهذا وجه تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالنهي عن طاعته للمشَّائين بالنميمة بتوجيه خاص:{ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ}[القلم: ١٠،١١] . ويقول تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }[الحجرات: ٦].

وما يدل على فطنة الإسكندر، ما روي أنه وشى إليه واشي، فقال له الإسكندر: تحب أن نقبل منك ما قلت فيه على أن نقبل منه ما قال فيك؟. قال الواشي: لا. قال: فكف عن الشر يكف عنك.

وكان مجاهد يقول في قوله تعالى: { وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ }[المسد:٤] كانت تمشي بالنميمة، وسميت النميمة حطباً لتولد الآفات والفتن عنها كما تولد النار عن الحطب وتتوقد.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:(لا يدخل الجنة قتات) وهو النمام.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:(شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون).

ويقول الإمام علي عليه السلام (ومن أطاع الواشي ضيع الصديق) [نهج البلاغة]

ويقول لمالك الأشتر:(وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس).

وما أكثر الغيابين، والنمامين، في عصرنا الحاضر،خاصة على المستوى الصحفي والإعلامي،ووجود سلاطين وحكام فجرة يستغلون هذه الآفات للتفرقة بين الناس وإلقاء العداوة والبغضاء فيما بينهم وإدخالها ضمن الأعمال السياسية، وما يقومون به من رصد الميزانيات الكبيرة لهذه الغاية،أعاذنا الله منهم، وخلص الأمة منهم ومن مصائبهم

وشـرورهم، مع أن البعض من الغاوين يبحث له عن مسـوغات، وتبريرات كاذبة، وواهية لتبرير ممارسـته لهذه الصـفات الممقوتة، والخلق المشـين، يغررون بها على الناس، وعلى الجهال المخدوعين بهم، يخادعون الله والناس بتلك المسـوغات كما في قوله { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ }[البقرة: ٩]

فهم يعملون بما يمكن أن نعبر عنه – بنواقض الإسلام - مثل: لا غيبة لفاسق. والفاسق في نظرهم من لم يوافقهم في آرائهم استكباراً واستعلاءً على الناس، وعدوانا.

ومنهم من يقول: بجواز الكذب لمصلحة، ثم يلفق القضايا والمصالح وفق رغباته ومصالحه، وهكذا قد أعدوا لكل عقدة عقدها الإسـلام ناقضـاً من أقوالهم وآرائهم، وقواعدهم، حتى لا يكاد يسلم منهم حكم من أحكام الله تعالى والله أعلم.

الكذب: وهو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو من مذام الأخلاق وأسوأها.

ومن ثوابت القرآن والحديث أنه لا تجتمع صـفة الإيمان والكذب في شـخصـية واحدة يقول تعالى{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ }[النحل: ١٠٥]

وعنه صـلى الله عليه وآله وسـلم :(الكذب مجانب للإيمان)، والكذب يضـر المجتمع ويوهي من عزائمه، ويهز الثقة ويضر بالتعاون ويمس بكرامة الإنسان.

وهو من أكبر المظالم، وذلك حين يكون الكذب على الله، إما لإثبات حكم يلزم الناس به أو ليضـلهم عن طريق الحق إلى طريق الباطل، موهماً للناس بأن ذلك من دين الله تعالى، فهو في هذه الحالة يقف موقف الخصـم لكل من الله تعالى وعباده - فهو ظالم لنفسـه وللناس ولدين الله الحق، يقول الله تعالى: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[الأنعام :١٤٤] ويضـاف إلى كونه ظلما أكبر، حيث يكون كذباً على الله، أنه يكون سبباً للهزيمة، وعدم النجاح، وذلك حين يكون تحريفاً لأحكام الله تعالى: { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ }[النحل:١١٦] { قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ }[يونس: ٦٩] وأخبرني أبي أنه اسـتنار بهذه الآية فقطع بقرب سـقوط الرئيس اليمني السـابق عبد الله السـلال،لأنه قال: إن جمال عبد الناصـر نبئ القرن الرابع عشر، وحصل كما توقع.

ويكون الكذب سبباً للضلال قال تعالى:{ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَـا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَـا إِلَى اللَّـهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّـهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَـا هُمْ فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّـهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }[الزمر:٣]،

ويشنع الله في القرآن على قوم من اليهود أنهم كانوا يستمعون للكذب، يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ }[المائدة:٤١].و{ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}٤٢

وحين يكون الكاذب أظلم ، فإنه يكون من أولئك الذين يرون أنفسـهم الناطقين باسـم الله، والمشـرعين لدين الله، ممن يسـميهم أشـباه الناس بالعلماء، وهم ليسـوا كذلك، وإنما يدفعهم إلى ممارسـة شـبه العمل الرسـالي حب الشـهرة، أو اسـتغلال العواطف المحبة للدين لتحقيق رغباتهم وأهوائهم، أو لخدمة جماعتهم، أو حزبهم أو مذهبهم،أو لخدمة السـلاطين، والتعبئة والتحفيز ضـد من يخالفونهم في أهوائهم وآرائهم، فهم في مثل هذه الحالات يسـتخدمون الدين ويستغلونه، ولا يخدمونه.

ومن كبائر الكذب بهت الناس، وذلك بأن يقال عليهم ما لم يفعلوا، وهو يقتضي التأثيم، قال تعالى: { وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }[النساء: ١١٢]، قال الزمخشري: لأنه بكسب الإثم آثم، وبرمي البري باهت - تفسير سورة النساء - .

والكذب من علامات النفاق، فعنه (ص):(علامة المنافق ثلاث: إذا قال كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان).

ويقول إمام المتقين علي (ع): (جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان، الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شرف مهواة ومهانة).
ويقول أيضاً: (قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته) [نهج البلاغة:ص٧٠٩].

فهذه الفقرات التي هي من أعمال اللسان، وما يعبر عنه بالإذاعة والإشاعة قد أخذت جانب الحظر في التشريع الإسلامي الذي نظم وقنن لهذا النوع من أفعال الإنسان الهامة ما يكون به مستقيماً، والتي وضعها كخطة تنموية في مجال السلوك الاجتماعي، والتوعوي، والتي وجهت إلى الإنسان الفرد والجماعة، لتلزمه الصمت الشامل حيال هذه الملغيّات الهادمة البغيضة، وتحوط بدائرة حمراء على كل سلبيات اللسان الخطيرة.
وهذا الحظر عن الخوض في هذه المواضيع هو الجزء الأول من مفاصل الخطة الإعلامية والتوعوية والتربوية في الإسلام.
٢- أما القسم الثاني من هذه الخطة فهو الرفض المطلق لما تنتجه هذه الإشاعات من سموم.
الرفض المطلق من قبل القيادة، والقاعدة، لكل ما يشيعه المتقولون، من غيابين ونمامين، لاستماع مثل هذه الإشاعات، يقول تعالى لمحمد(ص) وهو أكمل البشر:
{ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم}[القلم]، والهماز هو الغياب، والنمام هو من ينقل الغيبة أو الوشاية.
هذا البند من أكبر وسائل كبح الإشاعات وإفشالها لقوم يعقلون،ذلك لأن نوافذ سريانها قد أقفلت في وجهه، حيث وُوجهت برفض النقل، وبرفض التأثر بها كلية.
ويلحق بهذا غيره مما فصلته الآيات عن الغيبة، وسوء الظن، وتصديق الفاسقين، والذين منهم الغيابون، والنمامون، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }[الحجرات:٦] ونشر معايب الناس المعبر عنه باللمز.
ويقول الإمام علي (ع): (أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين، و سداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال، أما إنه قد يرمي الرامي، وتخطئ السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد) [نهج البلاغة:١٦٠].
هذا وأما المظلومون فلا إشكال في أن لهم الحق في ذكر ظالميهم بالسوء، وكشفهم للمجتمع، ودعوة الناس إلى منعهم عن ظلمهم، كما في قوله تعالى{ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما} النساء ١٤٨، وقوله تعالى {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين}الشورى ٤٠

الخروج على حرمة الإنسان:

ومن غريب وعجيب ما نرى ونسمع في وقتنا الحاضر، ما يعانيه الإ سلام والمسلمون في كثير من الأقطار من تدهور في القيم، وتفلت في السلوك، وانحراف في الأفكار، على أيدي جماعات طائشـــة، تظهر هنا وهناك، ظاهرها بدع وبواطنها جهالة، وســـلوكها اعوجاج، يحوطون أنفسـهم بسـياج من التعصـب الأعمى لآرائهم، وجماعاتهم، يكفّرون من سـواهم، ويتشـددون على من خالفهم ولم يرضـخ لآرائهم، ويؤمن بمبادئهم، ويعمل لأهدافهم، يرون غيرهم من المســلمين مشــركين، وكفاراً، ويســتحلون دماء هم، وأعراضـــهم، وأموالهم، وخداعهم، وتضـــليلهم،ويســـتجيزون الكذب عليهم،والتحيل عليهم، جهلاً بالدين، وانتهاكاً لحرمة المسلمين، ولغير المسلمين ممن لا يجوّز الإسلام الاعتداء عليهم.

ومع ذلك الأسلوب المخرب للدين، يدّعون بأنهم دعاة الإسلام، وعلماء الدين، مع أن المطلع على آرائهم، يجدها خليطاً باهتاً، ومتناقضـــاً، من تلفيقات الأولين، والمتأخرين، ومعتمدة على روايات القصّـــاصـــين، ووضـــع الكذابين - في الكثير منها- بل ومنها ما هو مخالف لصرائح القرآن الكريم، والمجمع عليه من سنة الرسول (ص) ومصادم لمبادئهما، ومنها ما هو معتمد على الأحلام، وادّعاء الكرامات لهذا الشـــيخ ولذلك الكتاب، فمن فضـــيع جهلهم وشذوذ رأيهم أنهم لم يفرقوا بين المسلمين الناطقين بالشهادتين، المصلين المزكين الصائمين الحاجين المتصـــدقين القارئين لكتاب الله، ممن لم يكن على مذهبهم، ولم ينقد لهواهم، ولم يقتدِ بهم، وبين من يكفر بالله، والرسول (ص) والكتب السماوية، فالفريقين في حكمهم على الســـواء، يحكمون عليهم بحكم واحد، يســـتحلون دمائهم، ويســـتبيحون أموالهم، وينتهكون أعراضـهم، حتى أنهم يدعون الله بعد الصلوات أن يجعلهم - هم وأموالهم وذراريهم- غنيمة لهم، وكأنهم صيد برّ لابني البشر.

فقد جهلوا أن من نطق الشـهادتين حرم دمه، وعرضـه، وماله، علماً بأن المسلمين مجمعون على أن للشهادتين هذا الحكم، وذلك إعمال لقرار الرسول (ص) الذي أعلنه في حجة الوداع على رؤوس الأشهاد، ولممارسته الفعلية في حروبه.

وفي ما يلي - إضافة إلى الأدلة، بيان وصفي:

١- الحكم الوسط للمنافقين وبحسب المكان الذي وضعوا أنفسهم فيه، وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، مع أنهم العدوّ، فقد حكمهم أن يعاملوا معاملة المسلمين، مراعاة لظاهر الإسلام، في الأنساب والمواريث والنكاح والطلاق، والقصاص والديات والجنايات، والتملك، وغير ذلك مما يتمتع به جميع المسلمين من الحقوق، وما يتحملونه من واجبات، فهم كغيرهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم،عدى الأحكام المختصة بالموالاة، وما أشبه لمن عرفهم في نفاقهم على وجه التحقيق، كالمودة، ونحو ذلك، هذا مع ما هم عليه من غضب الله وخزيه، وما أعدّ لهم في الآخرة من عذابه حيث ألحقهم بآل فرعون في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى:{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا }[النساء: ١٤٥]، وقال تعالى:{هُمُ الْعَدُوُّ

فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }[المنافقون:]،بل وأمر النبيء بقتالهم هم والكفار وذلك في قوله:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ومع ذلك لم يخرجهم من الإسلام بل كانوا يصاحبونه ويصلون معه ويقاتلون معه، ومع أمير المؤمنين علي وكانا يعطيانهم نصيبهم من الفيء، ويحسنون صحبتهم ومن طالع التاريخ والسير راءى ذلك واضحا ثابتا، وهم فلن يخدعوالله عن جنته، ولن يلحقهم في الآخرة بالمؤمنين، فهو وهم على ما وصف في القرآن: **{يخادعون الله وهو خادهم}** { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[القلم: ٣٦]، وهؤلاء الأدعياء على الدين يقتلون من خالفهم في مذهبهم، ويستحلون منه كل محرم، ويرون من أنفسهم أغير على الدين من رب الدين،

٢- قاتل المؤمن بغير حق متعمداً، وقد تقدم أن قتل النفس الواحدة بغير حق، يساوي قتل الناس جميعاً، أما جريمة قتل المؤمن بغير حق، فإنها جريمة تساوي قتل البشرية جمعاء وتخريب الدنيا بأكملها، فعنه (ص) أنه قال:(لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرئ مسلم).
وهذه المعادلة بين قتل المؤمن بغير حق وبين خراب الدنيا، واضحة كما ترى، وهي تعني أفظع من قيام القيامة، لأن قيام القيامة لا يحصل إلا لحكمة العدل الحكيم تعالى، وهي إحدى أهم تجليات رحمته للمؤمنين، حيث يحق لهم الحق، ويعظم لهم الأجر، وإحدى أهم تجليات نقمته على أعدائه، حيث يجازيهم على أعمالهم بشديد عذابه واليم نكاله، فالقيامة بهذه المعادلة حكمة ورحمة، وخراب الدنيا بتلك الجريمة، عبث وظلم.
يتجلى كبر هذه الجريمة، من خلال ما حكم به الله من جزاء على هذه الجريمة، يقول تعالى: { وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا }[النساء:٩٣] تأمل النص حيث لم يترك فراغاً في هذا المجرم إلا وشحنه عذاباً، فقد اشتمل على الخلود في جهنم، وغضب الله، ولعنته، وإعداد العذاب العظيم له، ومع ذلك كله فهو لم يزل في حكم الله فرداً ماضية فيه أحكام المسلمين، يرث ويورث، ولا يفرق بينه وبين زوجته، ويقبر في مقابر المسلمين، وتأريخ الإسلام مشحون بوجود قتلة المؤمنين حتى قتلة أهل البيت(ع) ولم نسمع أن أحدا أفتى بفسخ نساءهم، ولا بعدم صحة التوارث معهم إلخ...

٣- التوبة، غير خاف أن التوبة موهبة وهبها الله تعالى لعباده المذنبين من المسلمين، ورحمة واسعة لمن أراد الاستفادة منها، فيدخلها متخليا عن ذنوبه راجعا إلى ساحة عبادة ربه وطاعته، وهذه الرحمة خاصة بالمسلمين، محصورة عليهم دون سواهم، وذلك لأن الكفار ملزمون بالدخول في الإسلام أولاً، فليس لهم توبة دون ان يدخلوا في الاسلام، فالكافر إذا أذنب كأن يشرب الخمر أو يكذب، فغير مقبول منه أن يستغفر ويتوب إلى الله من ذلك ، بل لابد أن يدخل الإسلام أولاً، ودخوله الإسلام يجب ما قبله من المعاصي، لأنه توبة بذاته، ودخوله الإسلام لا يكون إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والالتزام بشرع الله، إذاً فالتوبة خاصة بالمسلمين، والإسلام بالشهادتين، فعلى هذا الأساس نضرب مثلاً، عن قصة حمزة بن عبد المطلب(ع) وقاتله وحشي عبد هند زوجة أبي سفيان، فهو بقتله حمزة يستحق القتل، ولو تمكن منه النبي (ص) قبل إسلامه لقتله، ولو

أعلن التوبة، فلن يستفيد منها، ولو قتله النبي وقد أعلن توبته دون أن يسلم لحشره الله مع الكافرين لكنه حينما جاء مسلماً لم يعد من الممكن قتله، قصاصاً بقتل حمزة، لأنه قد دخل الإسلام، فلا يعاقب على فعلٍ فعلَه قبل الإسلام هكذا كان يتعامل الرسول (ص) مع من دخل الإسلام، واما حكم القصاص فلا أعلم الآن له ما نعا من ثبوته وبقائه بعد النبيء لأن عفو النبيء عنه قد يكون لخصوصية له وكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم والله أعلم.

أما المسلم فحكمه بخلاف ذلك، فالمسلم القاتل ظلما، تكون توبته بأن يسلم نفسه لأولياء المقتول، فإما أن يقتلوه، وإما أن يعفوا عنه، مع الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، وذلك إذا لم يكن إمام عدل يحكم بالإسلام، ولا يجوز له أن يسلّم نفسه للطاغوت ليقتص لأولياء الدم منه لأن الطاغوت لا يمثل الإسلام وليس له حكم على المسلمين أصلا، مع أن الفرق بين هذا المسلم القاتل، وبين وحشي قبل إسلامه هو الإسلام، وإلا فكلا هما قتل ظلماً، إذاً فلا بد من لزوم اعتبار الشهادتين، وما أضفته من حرمة على قائلها، في دمه، وعرضه، وماله، وحسابه على الله.

وعلى هذا فقس بقية المظالم والجرائم التي يرتكبها المسلمون حكاما ومحكومين بحق بعضهم البعض، حيث نرى البعض منا يمارس من جرائم القتل، والتنكيل والإرهاب والظلم أكثر بكثير مما يفعله الكفار، وإذا راجعت تاريخنا، من عهد معاوية ابن أبي سفيان، وابنه يزيد، مروراً بالحجاج وابن الزبير، وآل مروان، وبني العباس، والاتراك العثمانيين، إلى عصرنا الحاضر، لرأيت صدق قولي، ومع ذلك لم تخرجهم الأمة من الإسلام - إلاّ من صرح بالكفر بلسانه، كالوليد-، وروي أن بعضهم سأل الإمام علي (ع) عن الخوارج، أهم كفار ؟ فأجاب قائلا: إخوتنا بغوا علينا، لم يحكم بخروجهم من جملة الإسلام،ولم يعاملهم ككفار، كونهم بغوا عليه وعلى المسلمين، وخرجوا عن حكمه، وحاربوه، وشقوا عصى المسلمين، فلم نعلم أنه فعل بهم كما يفعل هؤلاء المبتدعة من إصدار أحكام التكفير والتشريك ضد من خالفهم في رأيهم، أورفض أهدافهم، ومقت سيرتهم، كما أن حكم الله في البغاة على نحو ما ذكره تعالى في كتابه، يشتمل على معالجة الأمر بينهم بالمصالحة، وبعدها بمقاتلة المعتدي حتى يفيء إلى أمر الله، لم يحكم بكفرهم، ولا بشركهم، ولا أنهم أشد ضرراً على الإسلام والمسلمين من اليهود والنصارى كما يعبر هؤلاء المتحجرة عقولهم، يقول تعالى: { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[الحجرات: ٩]، وفي هذا دلالة كافية، لمن عقل، في أن تكفير المسلمين جريمة كبيرة وبدعة في الدين، مع ما يروى عنه(ص):(من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) وأن التجني عليه بهذه الألقاب اعتداء صارخ على كرامته، وحريته، وجرح لمشاعره وأحاسيسه،

وأن علينا أن نعرف حرمة الإنسان المسلم وكرامته، وأنها فوق ما نتصور، وذلك من خلا ل الدين، فعنه (ص) (سباب المسلم فسق وقتاله كفر).

وإنني أرى أن مجتمعنا المسلم لم تصل به معرفته البسيطة بالدين إلى المستوى الذي يقدّر به حرمة وكرامة الإنسان بصفة عامة، والإنسان المسلم بصفة خاصة، بل و إنني أشك في إدراكه بكرامته على الله، وذلك لقلة اطلاعه على الأحكام الخاصة بهذا المجال، في ديننا الإسلامي، ومن هنا فإنني أدعو إلى إثراء هذا الموضوع بالبحث، والتعليم والنشر، حتى نعرف قيمة أنفسنا، وكرامتنا، قبل أن يعلمنا الآخرون.

* * *

[الباب الرابع في عقل الإنسان]

التعريف الذاتي للعقل:

اختلف المتكلمون والفلاســـفة وعلماء اللغة وكثير ممن تحدث عن العقل، في ماهيته، ومكانه، وصـــاروا إلى أقاويل متعددة، ومتباينة في بعضـــها، وقالوا في تعريفهم للعقل كما يلي:

١- عرض. وهم الزيدية، والمعتزلة، وآخرون.

٢- والبعض هو القلب ذاته، وهم المطرفية .

٣- وبعض الفلاسفة: بل هو جوهر بسيط.

ثم اختلفوا في تحديد نوعية ذلك العرض على ما يلي:

١- العلم، جوهر مجرد عن المادة.

٢- مجموعة علوم ضرورية. والقائل به: المعتزلة وبعض الزيدية.

معنى قوة مقرونة بالأجسام. والمقصود بها أجسام الناس، والقائل به: الإمام القاسم العياني، في كتاب التنبيه والدلائل [ص١٦٩] والإمام المرتضى محمد بن الهادي (ع).

٣- قوة متهيئة لقبول العلم. والقائل به: الراغب الأصفهاني.

٤- قوة يكون بها التمييز بين القبح والحسن.

٥- معاني مجتمعة في الذهن.

٦- هيئة محمودة في الحركات والسكنات والكلام.

٧- العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، وجواز الجائزات.

٨- جوهر يدرك الغائبات بالوسائط والمشاهدات بالمشاهدة.

٩- نور روحاني يقذف به في القلب أو الدماغ.

إلى تعريفات أخرى.

وله عند أهل اللغة أصل واشتقاق، فيقولون: إن أصل العقل الإمساك، والاستمساك، ذكره الراغب الأصفهاني.

اقول :ويمكن أن يكون من معاني العقل الذي هو الامســـاك ، الفهم والحفظ ،فنحن نقول :إعقل المسالة بمعنى إفهمها واحفظها.

واشتقاقه: فمن العقل، وهو المنع، قال الشاعر:

قد عقلنا والعقل أي وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

أومن المعقل، وهو الملجأ.

غير أن هذه المسميات والمواصفات المتعددة التي غايتها تعريف العقل وإن كثرت، تجعلنا ندرك قوة العقل واتساعه، وتعدد قدراته، وكفاءاته، لا ضياعه وخفاؤه، وتتجلى لنا تلك القدرة الهائلة، في إدراكه لشيء من الأشياء، حين يختلف في وسيلة إدراكه لها وتعامله معها عن وسائل إدراكه وتعامله لأشياء أخرى، حيث يظهر وكأنه عقول متعددة، يستقل كل منها عن الآخر.

فحينما يفكر ويستنتج، يظهر وكأنه غير الشعور، وحينما يشعر، يظهر وكأنه غير التصور، وهكذا في بقية أحواله وأعماله المتعددة.

وقد تكون هذه التصرفات العقلية القديرة هي التي دفعت بالبعض إلى القول: بأن بعض الظواهر العقلية ليست من العقل، فصاروا يعانون من ضياع جزء كبير من العقل في تعريفاته بين ذلك الكم الهائل من الحالات، والمواصفات، والظواهر العقلية الجلية، حيث رأى البعض أن العقل هو العلم، مع أن العلم لا يعرف إلا بالعقل، وآخرون يرون أنه الفكر، وآخرون يرون أنه التمييز بين الحسن والقبيح، إلى آخر ما تقدم ذكره عنهم، غير ملتفتين إلى أن هذه كلها من ظواهر العقل، وأعماله، وأن تلك الأسماء المتعددة لتلك الظواهر المتمايزة إنما وضعت للتمييز بين تلك الظواهر وأحكامها ونتائجها، وكلها تعني العقل، ومظاهره، وأن التعدد الوضعي لهذه الأسماء لتلك الظواهر إنما جاء ت كمثل مجيء الأسماء المتعددة داخل الجنس الواحد،كإنسان، ورجل، وامرأة وما أشبه.

وكما اختلفوا في تعريف العقل وماهيته، فقد اختلفوا حول مقره، ومسكنه. وأشهر ذلك الخلاف على قولين: فمنهم من يرى أن مقره الدماغ، وهم الفلاسفة، والطبائعيون، وبتردد لدى بعض علماء الإسلام. ومنهم من يرى أن مقره القلب، ثم راح بعض أصحاب هذا الرأي أثناء جدلية حول هذه المسألة وعلاقة العقل بالدماغ، راح ذلك البعض إلى القول: بأن مقره القلب، وله مادة من الدماغ، والقائل بهذا الرأي الأخير بعض أصحابنا من الزيدية المتأخرين، والمعتزلة.

حقيقة العقل:

ومن خلال البحث الذاتي، والتفكير العميق والمطول، وجدت: أن العقل إشراقة قدسية وقوة معنوية يولدها الدماغ بحركته الذاتية، فيتحول بها الدماغ والحواس كلها إلى قوى فاعلة مدركة، ومستشعرة تقوم بوظائفها، وأعمالها، حيث يصير جسم الإنسان وكأنه عقل واحد، وتصبح حتى الشعرة مدركة شاعرة، فالدماغ والعقل المتولد عن حركته أشبه شيء بمولدات الكهرباء التي يتولد الكهرباء بحركتها، فتضيء، وتدفئ، وتحرك، وتحرق، وتعمل أشياء كثيرة، إلا أن الدماغ متعدد المهام أكثر من مولد الكهرباء، فهذا هو العقل، وهو ملاك ما في الإنسان.

بعض الظواهر الدالة على هذه الحقيقة:

١-الإدراك الشامل في اليقظة.

٢-عدم الإدراك في النوم.

٣- ضبابية التفكير والتـأمل عند طروّ حالة الكسل على الجسم ومن ثم على الدماغ.

٤- صفاؤه ونباهته في حالة نشاط الدماغ.

٥- الشعور بالملل والنوم في حالة القراءات المتأملة والمحتاجة إلى التركيز الذهني.

٦- زيادته بزيادة النمو من الطفولة إلى الاستكمال.

٧- نقصانه بضعف أو خلل في الدماغ، كالمتخلف عقلياً والمجنون، وبحسب الحالة.

٨- احتجابه في حالة السكر والمرض الشديد.

٩- نضوبه في حالة الهرم والشيخوخة.

١٠- اتصـال الدماغ بجميع أجهزة الجسـم عبر خيوط عصـبية صـغيرة، دون غيره من الأجهزة الأخرى ثبت ذلك بالتشريح.

فهذه الحالات كلها متعلقة بالدماغ، عدا الأول والثاني فإنهما من أفعال العقل، ليتضـح ما قلنا من أن العقل إشـراقة يولدها الدماغ، ولنؤكد ما يقوله أصـحابنا: من أن العقل عرض - أي قوة معنوية وليست مادة - وقد يجد المتتبع لحالات العقل والدماغ ظواهر أخرى.

العقل في القرآن:

قال تعالى: **{** إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ **}**[الأنفال:٢٢].

لقد برزت عظمة العقل في القرآن الكريم من خلال تكرار ذكره في آياته، وبتعابير متنوعة كلها إجلال وتحكيم، بل لا يوجد كتاب سـماوي ولا أرضـي أعطى العقل حقه كما أعطاه القرآن الكريم. فهو المعني الأول والوحيد في مجال الحوار والتفاهم، والتخاطب، في كل آية، وكل دلالة، وكل رسالة في الوجود، وهو أساس التكليف، ومتعلقة.

وفيما يلي عرض مختصر لما ورد عن العقل في القرآن الكريم:

١- وردت عبارة العقل تسعة وأربعون مرة، منها أربعة عشر مرة بصيغة التساؤل، { أفلا تعقلون }، وثماني مرات بصيغة التعليل،

{ لعلكم تعقلون }.

٢- فكر: وقد عبر القرآن بالتفكر عن العقل في حوالي ثمانية عشـر مرة. قال الراغب: الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسـب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلاَّ فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله؛ إذ كان الله منزهاً أن يوصف بصورة.١

٣- فؤاد: قال الراغب - أيضـاً-: الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي التوقد٢. وقد وردت عبارة الفؤاد بمعنى العقل في القرآن خمسة عشر مرة.

أقول:ولا نزال نحن العرب نسـتخدم كلمة الفؤاد للذكاء والتنبه، أي بزيادة معنوية عن كلمة القلب.

---

١ المفردات ص٣٨٤

٢ المفردات ص٣٨٦

٤- لب:{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}[البقرة: ٢٦٩]، معناه: الو العقول.٣ وقد وردت في القرآن سبع عشرة مرة.

٥- رشـــد:{ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْـــتُم مِّنْهُمْ رُشْـــدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ }[النساء: ٦]، فالرشد العقل، ٤ وقد وردت في عدة آيات.

٦- حجر: { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَـمٌ لِّذِي حِجْرٍ }[الفجر: ٥]، معناه لذي عقل. تفسـير الإمام زيد بن علي(ع)[ص٣٨٨]، وردت مرة واحدة.

٧- نُـــــهَى: { كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى }[طه: ٥٤]، يعني لأولي العقول٥، وقد وردت مرتين.

٨- **حلم** { أَمْ تَـأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَـاغُونَ }[الطور:٣٢]، أحلامهم عقولهم ٦. وقال الراغب: الحُلُم: ضـبط النفس، والطبع عن هيجان الغضـب. وقال: في معنى الآية، قيل: معناه عقولهم، وقد وردت في عدة آيات: وقال زهير:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم٧

٩- حكمة:{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَـاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ }[البقرة:٢٦٩] ومن معانيها: العقل. وردت بمعنى العقل٨.

١٠- تذكر: وقد ورد التذكر تعبيراً عن العقل في عدد من الآيات، قال الراغب: الذكر تارةً يقال، ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسـان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة.٩ والذكر بالقلب. يقال: مازال مني على ذكر، أي لم أنسه، قال الأخطل:

وكنتم إذا تنأون عنا تعرضت خيالاتكم أوبت منكم على ذكر١٠

١١- الشعور: { إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ }[الشعراء:١١٣]، قال الزبيدي: وفي اللسـان، وشعر به - بالفتح - عقله. ١١ وقد عبر القرآن بالشعور عن العقل في بعض الآيات.

١٢- البصـر: قال الزبيدي: والبصـر من القلب نظره وخاطره، والبصـر نفاذ في القلب، وقال: البصيرة قوة القلب المدركة..إلخ.١٢ والمراد: العقل.

وقال الراغب في مادة بصـر: ويقال لقوة القلب المدركة بصـيرة وبصـر، انتهى. وكذلك هنا فإن المقصود به العقل؛ لأن الإدراك من أعمال العقل، وإنما العرب تعبر عن ذلك بالقلب.

---

٣ تفسير الإمام زيد(ع) ص١٠٥و١٦٩

٤ الإمام زيدص١١٦

٥ الإمام زيدص٢٠٥

٦ تفسير الحمصي

٧ المعلقات ص١٢٣

٨ الإمام زيد:ص١٦٩و١٠٥

٩ المفردات:ص١٧٩

١٠ تاج العروس:ج٣ص٢٢٧

١١ تاج العروس:ج٣ص٣٠٠

١٢ تاج العروس ج٣ص٤٨

وهناك تسـمية أخرى للعقل لم ترد في القرآن، ولكنها موجودة في اللغة العربية، وهي: حجى كإلى، قال في القاموس: العقل والفطنة.[١٣]

العقل في أخبار الرسول (ص):
أما الرسول(ص) فقد تحدث عن العقل رابطاً بينه وبين المعرفة الحسنة، والطاعة الحسنة - أيضاً-، والإيمان.

وفيما يلي بعض مما ورد عنه (ص) في العقل:

١- روى الإمام الهادي (ع) في المجموعة الفاخرة [ص ٦٩٢] عن النبي (ص) أنه قال: (لما أن خلق الله العقل، قال له: أقبل ، فأقبل، ثم قال له : أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، بك أعطي، وبك آخذ).
أقول :وقد استبعد البعض هذه الحال، ولكن لا مانع من وقوعها فقد عبر الله عن طاعة الخلق واستجابتها لارادته، بقوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}(١٢)فصلت

٢- وروى الإمام أبو طالب (ع) في الأمالي، بإسناده عن أبي سعيد، قال: سمعت رسول الله صـلى الله عليه وآله وسـلم يقول: (قسـم الله العقل على ثلاثة أجزاءٍ فمن كن فيه كمل عقله، ومن لم يكن فيه فلا عقل له: حسـن المعرفة بالله تعالى، وحسـن الطاعة له، وحسـن الصبر على أمرهِ جلَّ وعز) [ص٢١٢].

٣- وقال في شـرح المرقاة، لمحمد بن الحسـن: وروى الإمام المتوكل على الله أحمد بن سـليمان(ع) في حقائق المعرفة، عن جابر بن عبد الله (رض) قال: قال رسـول الله (ص): (قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له) وروي عنه (ص) أنه قال: (ما تم دين إنسان قط حتى يتم عقلـه) وروي عنـه (ص) (جد الملائكـة واجتهدوا في طـاعـة اللـه، بـالعقل، وجد المؤمنون واجتهدوا في طـاعـة اللـه على قدر عقولهم، فعملهم بطـاعـة اللـه أوفر هم عقلا) وروي عنـه (ص) أنـه قـال: (ألنـاس س يعملون الخير ويعطون الأجر على قـدر عقولهم) انتهى.

٣- وروى في شـمس الأخبار أنه (ص) قال: (قسـم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمن كنّ فيه فهو عاقل، ومن لم يكنَّ فيه فلا عقل له: حسـن المعرفة بالله، وحسـن الطاعة لله، وحسـن الصبر لله).
٤- وروى فيه - أيضاً- أنه (ص) قال: (إن لله خواصاً يسكنهم الرفيع من الجنان، كانوا أعقل الناس).

---

[١٣] القاموس: ص١٦٤٢

٥- وروى الإمام أبو طالب (ع) في الأمالي [ص١٢٧] عنه (ص) أنه قال: (ما تم إيمان إنسان قط حتى يتم عقله).
٦- وفي غريب الإصفهاني عنه (ص) قال: (ما خلق الله خلقاً أكرم من العقل).
العقل في أقوال الإمام علي(ع)
إن أغنى الغنى العقل.
لا غنى كالعقل.
لا مال أعود من العقل.
ولا يغش العقل من استنصحه.
ما استودع الله امرأً عقلاً إلاَّ ليستنقذه به يوماً ما.
كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشدك.
بل إن كنت صـــادقاً أيها المتكلف لوصـــف ربك، [١٤]، فصـــف جبريل وميكائيل، وجنود الملائكة المقربين، في حجرات القدس مرجحنين، [١٥] ، متولهة [١٦] ، عقولهم أن يحدوا أحسن الخالقين. نهج البلاغة: [ص٣٩٠]
إلى مقتطفات ندية أخرى من كلامه (ع) مزبورة في النهج.

العقل في أقوال الإمام الهادي يحيى بن الحسين(ع)
يقول الإمام الهادي يحيى ابن الحسين عليه السلام في حديثه عن العقل: إن الله خلق العقول، وأوجدها فيهم، وجعلها حجة له عليهم، وسببها لهم- سبحانه وتعالى- تسبيبا، وركبها فيهم- احتجاجا عليهم-تركيبا، فهي حجة الله العظيمة، ونعمته على خلقه الكريمة، تدعو أبداً إلى الخير والهدى، وتنفي عن الخلق الضلالة والردى، تدل على الخالق ذي الجلال، وتنفي عن من أراد الحق الكمه والضـــلال، فهي أبداً لمن اســـتعملها داعية إلى الإســـلام، مخرجة من حنادس دياجير الظلام.

ويرى الهادي (ع) أن العقل يحتاج إلى التجارب غير مســـتغن عنها، معتبراً إياها لقاح العقل، حيث قال:ولقاح العقل فهو التجربة، لأن كل شـــيء يحتاج الى العقل، والعقل محتا ج إلى التجربة ومضطر إليها غير مستغن عنها.[١٧]
كما يرى الهادي (ع) أن مستوى العقول التي يتم بها التكليف والحجة على الإنسان سواء لدى كل العقلاء، وإن كانوا يتفاضـــلون في ما زاد عن ذلك المســـتوى من العقل، فهو من باب التفضل والزيادة في الخير من الخالق تعالى، مقيساً ذلك على تفاضل الناس في الهيئة، والصـــور، والألوان، والرزق، قال: فمن تكلم في ما فضـــل الله به بعض الخلق على بعض في زيادات العقل، وجب عليه أن يجيب فيما فضـــل الله به بعضـــهم على بعض فيما ذكرناه من زيادة الخلق في حسن الألوان وعظم الأبدان، والكمال والبيان،..الخ. [ص٦٠٥]
* * *

[١٤] المتكلف: المتعرض لما لا يعنيه
[١٥] المرجحن المائل لثقله، والمتحرك يميناً وشمالاً، كناية عن انحنائهم لعظمة الله، واهتزازهم لهيبته .
[١٦] المتولهة: اشتد عشقها، وميلها لمعرفته.
[١٧] المجموعة الفاخرة، تحقيق الأستاذ علي أحمد الرازحي ص ٦٤٣.

العقل في التدرج المعرفي والإدراكات:

ويسعى العقل ومنذ الطفولة والتدرج نحو الكمال، ويصعد إلى أن يصل بالفرد مستوى مجتمعه الفكري والثقافي والسلوكي، وسواء كان المجتمع راقياً في ثقافته وعلمه أم متدنياً في ذلك، وبعد ذلك لابد له من محاولة ونقلة تنقله إلى مستوى أرفع من مستوى مجتمعه إما بالقراءة أو بالخروج إلى مجتمع أرقى، أوبالعمل الذاتي عن طريق التفكير ودراسة المجتمع سلباً وإيجاباً، وقد يذهب عمره في هذه الوسيلة، خاصة في المجتمع المتخلف الذي لا يهتم بالعلم ولا يسعى إلى الأفضل، حتى وإن استفاد هو.
والعقل قوة هائلة جدا تقوم بأعمال كبيرة ومتعددة، والتي منها: الإدراك، وخزن المعلومات، والتصور، والتفكير، والتذكر، والإدراك الداخلي، وإخراج المعلومات إلى غير ذلك من الأعمال الكبيرة.
والذي يهمنا هنا هو البحث في الإدراك، وبالذات الإدراك الحسي، والإدراك الاستدلالي.
الإدراك:
الإدراك: هو: مشاهدة العقل وعلمه بما يحيط به من الأشياء، وهو المعرفة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:
١- الإدراك الباطن، وهو ما يدركه العقل من حالات النفس، دون الاعتماد على الحواس الخمس، كالراحة، والغم، والفرح، والجوع، والشبع، والآلام. الخ، ويسمى هذا الإدراك بالوجدان.

٢- الإدراك الحسي، وهو ما يدركه العقل بواسطة الحواس الخمس، أو بعضها، كالمرئيات، والمسموعات، والمشمومات، والمطعومات، والملموسات.

٣- الإدراك الاستدلالي التجريبي، وهو ما يدركه العقل بواسطة غيره، كإدراكنا بالقوة الكهربائية، بواسطة ما تحدثه من أنوار، وحركات، وغير ذلك، وكإدراكنا جاذبية المغناطيس بإدناء الحديد منه، وفوق كل ذلك إدراكنا بالله تعالى خالقاً ورازقاً بواسطة ما يحدثه فينا وفي العالم، من الخلق والإفناء وغير ذلك.

٤- الإدراك القياسي الاستدلالي، وهو التفكير والتخطيط للمستقبل على ضوء المعلومات المخزونة في الدماغ مسبقاً.
تلك هي أقسام الإدراك الأربعة.
وما يهمنا هنا هو الحديث عن القسمين الأخيرين، الإدراك الحسي، والإدراك الاستدلالي القياسي، لحاجتنا إلى معرفتهما في مجال الإلهيات، وسنبدأ بالإدراك الحسي.
ينقسم الإدراك الحسي بحسب ما يصل إلى العقل من محسوسات إلى ثلاثة أقسام:
الأول- الإدراك الحسي التصويري، وهو قسمان:
أ- تصور حقيقي.
ب- تصور خطابي تعبيري.
الثاني- إدراك حسي تسجيلي، وهو ما يدركه العقل من أصوات لا تحمل معان تعطي تصورات.

الثالث - إدراك حســـي تفاعلي، وهو إدراك تفاعل النفس مع معطيات المعاني عديمة الصور والأصوات.

وملخص هذه الأقسام: أن ما يدركه العقل بواسطة الحواس الخمس يحولها العقل بحسب طبيعتها إلى صـور بالنسـبة لذوات الصـور من المعلومات، كالمشـاهدات، وهي الصـور الحقيقية، وإلى صور تعبيرية بالنسبة لما يسمعه العقل من أخبار عن ما يصح أن يكون له صـور بالمقايسـة، كالقصـص، والمسـائل، والأمثال، ويسـمى هذا النوع من الصـور صـوراً تعبيريـة، يرســـمها العقل للتعبير عنها عند الحاجة، ويحتفظ بالمعلومات بواســـطتها بغض النظر عن واقعيتها أو عدم واقعيتها، وهذه العملية في جانب التخاطب أخذاً وعطاءً أشـبه ما تكون بعمل أجهزة الراديو والإذاعة، حين يتحول الكلام إلى ذبذبات، يحملها الأثير ليستقبلها الراديو، ويحولها من ذبذبات إلى نفس الصوت ونفس الكلام.

وسوف يأتي ذكر هذا، وذكر المعلومات عديمة الصور في موضوع التصور، وكذلك الأمر بالنسبة لإدراك تفاعل النفس مع معطيات المعاني عديمة الصور.

والمهم الآن هو أن نفهم أن الصـــور العقلية عما غاب عن النظر أنها ليســـت متطابقة مع صـورة ما تم تصـوره أبداً، بل وأنها غير واقعية، وليسـت إلاَّ صـوراً وهمية، مهمتها حفظ القصـة، أو المعلومات، حتى ولو كانت تلك القصـة وتلك المعلومات كاذبة، كتلك المعلومات التي تتضمنها القصص الوهمية والخيالية.

وأما الإدراك الاستدلالي القياسـي، الذي يسميه الأصوليون- بالنظر- وهو التفكير، فهو العلم الثاني، الحاصـل عن طريق النقل، من المعارف البديهية، إلى المعارف المسـتنتجة، وهي: معارف قائمة على أسـاس المقارنة بين المعنويات في المعنويات، وبين المحسـوسـات في الحسـيات ، فإنه يقوم وعلى أسـاس المعلومات السـابقة، بالمقارنة، والمقايسـة، والتطابق أو شـبه التطابق بين ما هو في الذهن من معلومات عن الماضـي، وبين ما يصـح أن يحدث في المسـتقبل، يدرك العقل النتيجة، فمثلاً من خلال مشـاهدتك للمطر وما حدث بسـببه من نبات وثمار، تحصـل على معرفةٍ مشَـاهدةٍ لما يحدُث بسـبب المطر، وتبقى هذه التجربة معلومة مخزونة في دماغك طوال حياتك.

فكلما تمر بـأرض مجدبـة، وقاحلـة، تدرك بـأنه لو نزل عليها المطر لاخضـــرت، وربت، واعشوشبت، وأثمرت. وأنت تحمل الحجر فتدرك صلا بتها، وتلمس النار فتدرك حرارتها، فهذه تجارب أوليّة، ومعلومات ضـرورية، ففي المعلومة الثانية الاسـتدلالية، تتوسـع، فأنت كلما ترى ناراً أو تذكرها تعلم أنها تحرق، وكلما ترى حجراً تعلم أنها ثقيلة وصلبة،

وما هذه النتيجة إلاَّ بعملٍ فكريٍ سريع لم تحس بسرعة الهائلة، من عودة العقل إلى أرشيف المعلومات المختزنة بداخل الدماغ، وعملية المقارنة، و المقايسة التي تمت هناك.

وكذلك الأمر بالنســـبة لبقية المعلومات التي يتناولها الإدراك الاســـتدلالي- التفكير- من مشـاهدة المبنيات والتغيرات والأسـباب ونتائجها، والخلق والإبداع، وما يصـدره العقل من أحكام على ضوء عملية التفكير.

مثل الأحكام العقلية المعلومة: الإنســـان لا يخلق نفســـه، البناء لايبني ذاته، وإن للمخلوقات خالقاً، كما أن للبناء بنَّاءً، وباب التفكير باب واســـع جداً، ويكتســـب الإدراك الاســـتدلالي معارفه، من الاكتسـاب الذاتي- ألبحث كما تقدم- والاكتسـاب المسـتفاد مما يحصـل عليه من معـارف الآخرين، كالكتابات، وغيرها من المنشـــورات المتوفرة، حيث نكتســـب معارف الآخرين إلى معارفنا.

ولكننا نحب أن نبين أن الإدراك الاستدلالي- التفكير- ليس مستقلا بذاته، فهو يحتاج دائماً إلى الإدراك الحسي بأقسامه،١٨، وكذلك الإدراك الذاتي؛ لأن التفكير قائم على عملية المقارنة، والمقايسة، بين المعلومات الأوّلية التي جمعت بواسطة الادراكين المذكورين، والتي يعتبرها تجارب مفيدة، وهذه الحاجة هي ما عبر عنها الإمام علي (ع): - والعقل حفظ التجارب -. وبقول الإمام الهادي (ع): ولقاح العقل التجارب، يريدان أن العقل بدون تجارب عقيم غير منتج.

فالتفكير إدراك ثانوي، يحاول تقليد المشاهدات العقلية الأُخرى، وبالذات الإدراك الحسي في جميع أعماله، والتفكر ميزة الإنسان الكبرى.

وسنحاول أن نتعرف على طبيعة الإدراك الحسي أكثر عن طريق عمله التصوري، والتسجيلي الذي يقوم على ما تحكيه الحواس الخمس، ثم نتحدث عن الحواس الخمس بشكل أوسع، لأصالتها في عملية الإدراك الحسي؛ إذ هي أداته وطريقه، والتي بدونها لا يتم الإدراك الحسي، ولكنا سنقدم موضوع التصور لكونه جزء اً من الإدراك نفسه، فإلى هناك.

---

١٨ قال الوالد العلامة بدر الدين: وليس المراد أن يحصل بواسطة الحواس ولكن المراد أن يحتاج فيه إلى العلم بالمحسوس في بعض الحالات.

التصور العقلي:
وهو ارتسام ذهني لما كنا شاهدناه، وما لم نشاهده بأبصارنا، كتصورنا البلدان، والمدن، والناس الذين لم نزرهم ولم نشاهدهم، وما نتصوره من مدلولات القصص، والأخبار القديمة، والحديثة، الواقعية، والخيالية، ومسائل علمية، وما نتصوره عن الآلات، والصناعات، حين ندرسها، وحكم هذه التصورات غير المطابقة.
والصور هي: كل الأشكال، والألوان المشاهدة المدركة بحاسة البصر، وتصورها في الذهن كهيئتها خارج الذهن، حقيقية، وواقعية، ومطابقة، عدى حالتي السحر والمرض.
وهذه الصور المشاهدة هي أصل التصور العقلي، وعليها يقيس العقل جميع تصوراته عن مالَه صورة في الواقع، وعن ما ليس له صورة - في الماضي والحاضر والمستقبل-.
وأما التصور العقلي، فهو ما يصوره العقل على صفيحة الذهن من صور بديعة أثناء التخاطب، وأثناء التفكير في المستقبل والحال والماضي، و استحضار وتذكر الماضي منها.
فحينما يجول الفكر في حاضره، يستذكر مشاهداته الماضية، وما عايشه من مختلف الحالات، والأماكن، والأشخاص، والأوقات، فتبرز على صفيحة الذهن صورة كل تلك المشاهدات، وتظهر كما لو كانت على شريط فيديو.
وكذلك حينما يغوص في أعماق التأريخ، فيستذكر المشاهد التاريخية التي قرأ عنها، وانطبعت صورها على صفيحة ذهنه، فهو يشعر بها كما لوعايشها بنفسه تقريباً.
أو يذهب به التفكير عن مستقبله الحياتي، من عمل وحركة، وتخطيط، فيصور له تلك المتوقعات التي فكر فيها، وكأنها من حيث الظهور لتلك الصور وأشكالها، قد حدثت وتحققت.
هذا هو التصور.

ولكن لماذا التصور العقلي؟
حينما كانت من مهمات العقل العظمى هو الاحتفاظ بالمعلومات، فقد هيأ الله له وسيلة سهلة في حفظ المعلومات ونقلها للآخرين، وهي وسيلة التصور الموضح قبل قليل، وذلك بخلاف وسيلة حفظ نفس الكلام، فإن حفظ نفس اللفظ دون اقترانه بصورة متعب جدا، ويكلف وقتاً وجهداً كبيرين كما يحتاج إلى تعهد التلاوة كي لا ينسى، الأمر الذي يعني أنه لو كان العقل قد اعتمد وسيلة حفظ نفس اللفظ ، في حفظ المعلومات ونقلها للآخرين، لجاء أحد الأيام وقد امتلأ الدماغ كلاما وهراءً وصراخاً من هنا وهناك تماما كشريط المسجل الكاسيت، ولكان نقل المعلومات من دماغ إلى دماغ صعباً جداً، حيث يحتاج الواحد منا إلى وقت طويل لتحفيظ رسوله الرسالة الشفوية المراد إبلاغها إلى المرسل إليه، ونحن ندرك هذه الحالة حينما نحتاج إلى حفظ بعض النصوص التي لا تعطينا صورة واضحة عن معاني تلك النصوص، فإنها تكون صعبة الحفظ، بخلاف ما وضح تصوره من النصوص، فإنه يسهل علينا حفظها والتعبير عنها.
هذا بالنسبة للاكتساب المعرفي، والحفظ، فضلاً عن العطاء والإخراج، فإنه سيكون أتعب وأقل فائدة، حيث تكون بعض المعلومات قد محاها النسيان، والباقي يحتاج في نقله إلى الأدمغة الأخرى إلى جهد التلقين والتحفيظ وعناهما، ومن ثم تتلاشى العلوم، وتنعدم

لصعوبة اكتسابها، وحفظها، أو لصعوبة إخراجها، وإعطائها،- فسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم -.
أما وسيلة التصور، فيمكنك بصورة ذهنية واحدة أن تتحدث عنها ساعات كثيرة، ولما تستكمل ما تحمله تلك الصورة من معاني ومعارف ، ولنضرب لهذا مثلا: المهندس الذي ارتسم في ذهنه صورة لطائرة كاملة، فلو طلبنا منه أن يشرح لنا الطائرة ويحدثنا عن هيكلها ومكائنها ومحركاتها وجميع أجهزتها، سيحتاج إلى وقت طويل، بينما هولا يحتاج في إبراز صورتها على صفيحة ذهنه إلى وقت يذكر، فبمجرد ذكر الطائرة تظهر صورتها فوراً.

تحويل الخطاب إلى صور:
إن تحويل الخطاب إلى صور ذهنية بواسطة التخاطب بوسائله المختلفة ونقلها من دماغ إلى أدمغة الآخرين، فيصبح لدى أذهان المتلقين نسخ لتلك الصور، تعتبر هي الطريقة الحكيمة والبديعة،
بل والوحيدة لصحة وإمكانية التخاطب بين جميع البشر وبشتى اللغات واللهجات والإشارات وغيرها من وسائل التخاطب التي يمكن عبرها نقل الصور من ذهن إلى ملايين الأدمغة البشرية.
حيث يمكن للعربي الذي يتقن اللغة الإنجليزية - مثلاً - أن ينقل صوره الذهنية التي جمعها هو بذاته الإدراكي، أو بالتخاطب العربي، إلى عقول الإنجليز، بواسطة لغتهم الإنجليزية، فيصبح لدى أذهانهم نسخ لنفس الصور التي خاطبهم عنها، وكذلك الأمر بالنسبة للغات الأخرى.
ونحن نجد الأبكم يستفيد من وسيلة الإشارات لأخذ تصورات المجتمع من حوله، فيأخذ معظم ما يعايشونه من أحداث، وأفكار، ومعارف، عن طريق تصورها في ذهنه.
ومن هنا نجد أن التصور الذهني، أبدع وسيلة لحفظ المعلومات، وإبلاغها، وأفضل قناة يتم بها التخاطب البشري، إذ أنه لو لم يقم الدماغ بتصوير المعلومات، لما صح نقلها من أصحاب لغة إلى أصحاب لغة أخرى أبدا، ولكان كل مجتمع ذي لغة خاصة به، منطوياً على نفسه، ومعلوماته، فلا يعرف عن المجتمع الآخر شيئاً، ولأصبحت المجتمعات البشرية المختلفة اللغات منفصمة عن بعضها البعض، كانفصام أجناس الحيوانات عن بعضها الآخر، بل ربما وصلت الحال إلى انعدام وسائل التخاطب بين أفراد المجتمع الواحد، والجنس الواحد.
وهناك اعتقاد يقول: إن التخاطب الذي تم بين النبي سليمان(ع) وبين الحيوانات المختلفة الأجناس، جاء عن طريق فهمه لوسائل تخاطبها، وقدرته أيضاً على استخدام تلك الوسائل لإبلاغ أوامره إليها، وهو قوي جداً؛ لأن النملة - مثلاً - لا تملك القدرة على إصدار الكلام والصوت الذي يصل إلى مسامع سليمان (ع)، لصغر حجمها، وضعف صوتها، ونَفَسِهَا، والله اعلم.

كيفية التصور:
يقوم الدماغ بتصوير معنى كل جملة مفيدة يحصل عليها بواسطة التخاطب، فيركب على ضوء معاني القصة - مثلاً- صورةً كاملة، وقد يستعير صوراً لما لم يشاهد له صورة من

ذي قبل، أو يرسم له صورة وهمية، وذلك كله لحرصه على حفظ المعلومات في شكل صور، وكل واحد منا يدرك ذلك في نفسه.
فحينما يحدثك صديقك عن مدينة صنعاء - مثلاً- قبل أن تزورها، وما شاهده فيها من مبانيها، ومنشئاتها، وشوارعها، فممالا شك فيه أنك ستحصل على صورة في ذهنك، لما حدثك عنه مما يصح أن يتصور، ومما لاشك فيه- أيضاً- أنك حينما تقوم بزيارة صنعاء، تجد الصورة الحقيقية المشاهدة مختلفة تماما، عن الصورة الوهمية التي حصلتَ عليها بواسطة حديث صديقك عن تلك المدينة.
وحينما يحدثك عن صديق له لم تعرفه، فإنك تحتفظ لذلك الشخص بصورة في ذهنك، وحينما تلقاه تجد شكله مختلفاً تماماً عن صورته الذهنية التي احتفظت بها سابقاً عنه، وتقول في نفسك: كنت أتصوره كذا وكذا.
وحينما نقرأ قصة استشهاد الإمام الحسين ابن علي (ع) الأليمة نجد لها صوراً في أذهاننا، فنرى أماكن صحراوية، وجيشاً مدججاً بالسلاح تحملهم الخيول ، وأنهاراً يسيل ماؤها ويتلألأ في الشمس، وقتلاً وقتالاً، وصراخ النساء، والصبيان، من العطش، والجوع، والخوف، والآلام، كل هذه الصور القاسية، نجدها قد ارتسمت في أذهاننا، واكتملت بقراءة القصة فقرة فقرة.
هذا أسلوب العقل والتصور وسلوكه، وهو في حاله هذه يشبه جهاز الراديو الذي يلتقط الذبذبات ليحولها إلى أصوات، أو كجهاز التلفاز الذي يحولها إلى صور، وأصوات مشاهدة ومسموعة.
وهذا الأسلوب يستخدمه العقل، سواء كان الخطاب من الخارج لذات الإنسان، كمخاطبة أحدنا الآخر، أم كان خطاب العقل إلى العقل نفسه كالتفكير، فإن العقل يقوم بتصوير ذلك، وسواء كان التخاطب - أيضاً- باللفظ، أو بالإشارة، أو بالكتابة، أو بمشاهدة الآثار.
ومن بدائع القرآن الكريم استخدامه في كثير من آياته أسلوب التصوير اللفظي، ليقدم للعقل صورة جاهزة، محددة، وواضحة، ليتصورها كما شاء له القرآن أن يراها.

كقوله تعالى: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا }[الكهف:٣٤]، وكقوله تعالى: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا }[الكهف: ٤٥]، إلى آيات كثيرة مشابهة تقوم بتقديم صور جاهزة، ليتلقاها العقل فيهضمها ويحفظها بيسر وسهولة.

الصورة بين التطابق والاختلاف:
قلنا: إن الصور العقلية ليست إلاّ لحفظ المعلومات فقط، بغض النظر عن واقعيتها، أو مطابقتها شكلاً لما صورت له، وتكون من المطابقة بحسب الوصف قرباً وبعداً، إن كان الخطاب صدقاً، إلاّ أن قضية التطابق قضية هامشية لدى العقل في مجال التصوير؛ لأن الغرض الأهم لديه كما قلنا هو حفظ المعلومات، في شكل صورة، فهو يصور عن حادثة، خوطب عنها صوراً دقيقة، بحسب الوصف، ولو كانت الحادثة مختلقة.

فقضية الصدق والكذب - أيضاً- في مجال التصور الذهني هامشية أيضاً، ومن هنا فمسألة التطابق بين الصورة الواقعية، والمتصوَّرة في الذهن، بعيدة جدا، بل لن يحصل التطابق أبدا، ولن تتطابق في دماغين إطلاقاً، يؤكد هذا تصورنا عن هيئة أحد أقربائنا عند غيابه عن نظرنا ومشاهدتنا، وكذلك الكيفية التي سيكون عليها عند اللقاء المتوقع به، فإننا نجد مَن هذه حاله على هيئة وكيفية وصورة بخلاف ما كان قد تصورناه عليها قطعاً، وقد تقدم مثل هذا، في ذكر الحديث عن مدينة صنعاء، حيث نبهنا على اختلاف التصور الذهني، والواقع المشاهد بالبصر، كما أننا نحتفظ بصور عن كثير من المغيبات، وهي في حقيقة صورها مخالفة لصور أذهاننا قطعاً، نحن نتصور الملائكة، والجن، والجنة، والنار، والحشر، وغير ذلك مما حقيقته لم تخطر على قلب بشر رغم قناعتنا بوجود الفوارق الشاسعة بين تصورنا الذهني والصور الواقعية لهذه المغَيَّبات.

ولا ننسى أن ننبه على حقيقة هامة، وهي: أن التصور العقلي عن ما لم يشاهده البصر، لا يتم إلا بالقياس والمقارنة، على ما لديه من صور حقيقية، اكتسبها بالمشاهدة بالبصر، وذلك كتصورنا عن البلدان التي لم نزرها، وأهلها، ومدنها، وأشجارها، وغير ذلك، فنحن لم نتصور ذلك إلاَّ على ضوء ما لدينا من صور مخزونة، اكتسبناها بالمشاهدة لما قرب منا.

وأيضاً الأكمه لا يمكن ان يتصور شيئاً سوى هياكل استفادها باللمس، فلو حدثناه عن مدينة الحديدة - مثلاً- لما قاسها في ذهنه حال محاولة التصور إلا على المنضدة أو البيت الذي قد تلمّسه كثيراً؛ لأنه عديم الصور المشاهدة بالبصر التي يتم عليها المقايسة بما غاب عن البصر، وبهذا نؤكد مقايسة الصور الوهمية على الصور الواقعية المشاهدة بواسطة البصر واختلاف بعضها عن البعض الآخر في الدماغ الواحد، وفي الأدمغة المتعددة.

ولذلك أحب أن أنبه أن لكل عقل تصوراً مخالفاً لتصورات العقول الأخرى عن ذات الشيء الواحد الذي لم نشاهده بالبصر بعد، وإن كان مما يرى، فلو حدثت مجموعة من مهرة الرسم عن مزرعة، أو حيوان، وفصلت لهم ذلك، من حيث الأشكال، والألوان، والهيئات، ثم طلبت من كل واحد منهم رسم ذلك الشيء، لقدم لك كل واحد منهم رسماً متميزاً عن رسومات زملائه، وإن كثروا.

أقسام التصور:

ينقسم التصور الذهني إلى قسمين:

قسم طبيعي وقريب: وهو تصور ما غاب عن البصر قياساً على جنسه المشاهد، كتصور الإنسان الغائب مقايسة بصورة الإنسان المشاهد الحاضر.

قسم تصوري قياسي بعيد:كتصور الملائكة والجن- مثلا- مقايسة بصورة الإنسان، فنحن نحتاج إلى هذا التصور لنضيف معلومات كل جنس إلى جنسه لغياب الأجناس عن مشاهدتنا، فنميز كل جنس عن الآخر بالصور الوهمية، فالمعلومات المتأخرة عن الملائكة يضيفها الذهن إلى المعلومات السابقة عنهم في ارشيفهم التصوري، فلا تختلط بمعلومات عن أجناس أخرى، متصوَّرة أو غير متصوَّرة، وهكذا في بقية الأجناس خفية الصور.

معلومات غير متصورة:

الواقع أن العقل لا يقوم بتحويل كل المعلومات إلى صور، لأن من المعلومات ما ليس لها صورة أصلاً، وليس لها عند العقل شبيه مما بحوزته من الصور ليقيس عليها صوراً لهذه المعلومات عديمة الصور، فنفي التصور باب معرفي كبير، ويكون انعدام التصور عما لا

يمكن تصـــوره، هو حقيقة العلم به، مع إثبات وجوده، كعلمنا بالله تعالى، وأنه لا شـبيه له، ولا مثيل.
وأيضـــاً فإن التصـــور ليس إلا طريقة واحدة من طرق العقل الذي يحتفظ بالمعلومات بواسطتها .
والحقيقة أن هناك معلومات ثابتة ندركها بحواسـنا ونسـتفيد منها ونتعامل معها ونتعاطاها، ليس لها صور ولا يمكن تصورها ولا حتى بالقياس أبداً.
وذلك مجموع ما تدركه الحواس الأربع، - السـمع، والشـم، والذوق، واللمس- من معاني كامنة في موادّها،كالحلاوة الكامنة في مادة السـكر، والعسـل، وغيرهما، والحموضـة، والمرارة، وغير ذلك مما ندركه بحاسـة الذوق، فنحن إنما نشـاهد المادة الكامن فيها ذلك المعنى، ولا نرى أو نتصـور ذات المعنى أبداً، لا نرى الحلاوة، ولا الحموضـة، ولا المرارة، ولا نتصورها كتصورنا الملا ئكة، أو ما أشبه.
ونحن نسمع الأصوات، كبيرها، وصغيرها، ولكنا لا نتصور ذوات تلك الأصوات، وإنما نسجلها في أدمغتنا، أو نتصور معانيها إذا كانت مما يستفاد منه تصوراً كما مر سابقاً.
ونتصـــور آثار القوة الكهربائية، كالإنارة، ودوران الآلات، لكنا لم نتصـــور ذات القوة الكهربائية.
ونحن نتصور شجر الرياحين، والسوائل العطرية، لكنا لا نتصور ذوات الروائح الكامنة في تلك المواد أبداً.
ونحن نحس بالحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، واللين، والصلب، ولكنا لا نتصور هذه المعاني، وإنما نتصـــور الحجارة الصـــلبة، والقطن اللين، وربما الهوى الذي يحمل الحرارة، والبرد.
فليس لهذه المعاني كلها - وهي مخلوقة نستفيد منها - صور لا في الواقع المشاهد، ولا في الذهن، ولن نستطيع أن نتصورها، ولا أن نقيس لها صوراً على مشابهٍ لها.
والسؤال هو: كيف يعمل العقل في حفظ المعلومات التي ليس لها صور، ولا يمكنه تصورها قياساً على صور أخرى مما هي موجودة لديه يتعامل معها ويستفيد منها؟
الجواب: إنه يقوم بتسـجيل تفاعلات النفس المختلفة مع معطيات هذه المعاني، سـلباً، وإيجاباً، بدقة، فيحتفظ بها لوقت الحاجة، لأن مهمة العقل خدمة النفس من جلب الخير ودفع الشر والضر، فهو لا يفوت بمعلومات لها علاقة بالنفس سلباً وإيجاباً، ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً، ولذلك فهو حينما يعجز عن خزنها وضغطها في صور جامعة، يجنح إلى طريقة أخرى وهي تسجيل تفاعل النفس مع معطيات المعاني المفيدة والضارة على حد سواء.
فحينما تشاهد زهرة لم تشمها من ذي قبل فإنك لا تعلم شيئاً عن رائحتها، وحينما تشمها ويعجبك ريحها، يقوم العقل بتسجيل ذلك الارتياح النفسي، ونوعية تلك الرائحة في الدماغ، حتى إذا شاهدتها مرة ثانية ولو بعد حين تستذكر تلك الرائحة وذلك الارتياح وتكون على علم برائحتها الطيبة، ونوعية ذلك الطيب، فذلك الاستذكار هو إيحاء العقل ببعث تلك المعلومات المخزونة، بطريقة التسجيل إلى النفس بتفاعلها الإيجابي مع معطيات رائحة تلك الزهرة فيما سبق دون أن تظهر صورة لذات تلك الرائحة في الذهن وإن ظهرت صورة الزهرة نفسها، وذلك أمر محسوس.

وحينما يمر أحدنا بميتة فإنه يبتعد عنها لعلمه المسبق برائحتها الكريهة، وذلك لأنه في يوم ما مرَّ بجيفة كانت رائحتها مصدر إزعاج، وهكذا في بقية المعاني الطيبة، والكريهة، مما ليس له صورة، ولا يمكن تصورها بحال.

وهذه الطريقة والوسيلة لحفظ المعلومات، يحتاج فيها العقل إلى التجارب الكثيرة والمتكررة لتنوع المعاني في الشيء الواحد، أو المادة المتجانسة، أو المتشابهة، فكم شخصاً شرب كيروسين وهو يظنه ماءً سعياً للتمايز فيما بينها، وإيجاد نوع من التشابه بدقة بالغة.

ومع هذا فإن التصور أسهل وسيلة، وأدق وأشمل فائدة.

أما الأصوات، فإن العقل يسجلها بذاته - أيضاً- مع تفاعل النفس معها سلباً وإيجاباً، ونحن حينما نعبّر عنها نحاول تقليدها بأصواتنا، سواء كان صوت حيوان، أو ماء، أو سقوط أحجار، أو انكسار أشجار، وغير ذلك مما نسمعه، فإن العقل يقوم بتسجيل كل ذلك، ويضبطها، ويميز بينها بدقة بالغة، وما ذلك إلا لعجزه عن رسم صور لها العجز المطلق.

والنتيجة هي: أن الإدراك الحسي يستخدم ثلاث وسائل لحفظ المعلومات:

١-التصوُّرُ لما يمكن أن يُتَصَوّر، وبالقياس الدقيق.

٢- تسجيل ذات التفاعل النفسي سلباً وإيجاباً لمعطيات الأشياء حاملة المعاني ونوعية عطائها، وهو الانطباع، وهو معلومات نفسية، ليست في شكل تصورات، ولا أصوات، ولا نفي مجرد، وإنما هي حالة من انطباع النفس السلبي أو الإيجابي مع كثير من المعطيات من حب أشياء، وكراهية أشياء مضرة وبغيضة، فقد تذكر في خاطرك شخصاً كانت نفسك قد اتخذت تجاهه رد فعل سلبي أو إيجابي، فبمجرد التذكر يظهر في نفسك ذلك الشعور تجاهه، وكذلك الأمر بالنسبة لما يؤكل، ويشرب ، ويشم، ويطعم، ويسمع، ونحوه، وهذا الشعور معرفة بذاته، ومكتسب بالتجارب.

٣- تسجيل ذوات الأصوات والتمايز فيما بينها بدقة بالغة.

وكل هذا يأخذ بنا إلى أن هذا التعدد في وسائل العقل لحفظ معلوماته، يعني أن التصور ليس إلا جزءاً من المعرفة وأنه ليس من الضرورة تصور معلومات لا يمكن تصورها وأن وجود معلومات غير متصورة أمر ضروري ملموس ومحسوس لا يمكن نكرانه أبداً كما أثبتناه.

التصور والتوحيد:

كما تحدثنا سابقاً قلنا: إن التصور صور في الذهن أو الدماغ، إما حقيقية، أو وهمية خيالية قياسية، أو كاذبة غير واقعية، وأن الصورة الحقيقية في الذهن هي المطبوعة بالمشاهدة فقط، وغيرها وهم، وخيال فقط. وقلنا أيضاً: بأن التصور عن الشيء الواحد يتعدد في الأذهان بتعدد الأفراد- أي أن كل فرد من الناس يختص بصورة خاصة به عن الشيء ذاته- . وقلنا: بأن هنا في الوجود أشياء كثيرة لا نتصورها في أدمغتنا.

ونأتي الآن فنقول: بأن التوحيد الذي هو تمييز الخالق عن المخلوق وإفراده عن من سواه، لا يمكن ولا يجوز أن يرسخ في عقل يتصور الذات المقدسة أبداً، لأن التصور إثبات لصفات المخلوقين، والتوحيد نفي لصفات المخلوقين، ولأنه لا يتصور في الذهن إلاّ ما كان مخلوقاً حقيقة أو وهماً، والتصور الحقيقي هو: ما ثبت بالمشاهدة بحاسّة البصر. والوهم: تصور ما لم ير بالبصر، ولا يجوز بحال أن ندعي لله تعالى صورة عن إملاءات الوهم، مع أن الصور الوهمية متعددة بتعدد الأفراد، فلا يدرون أيها الحق وأيها الوهم، تعالى الله العظيم الأعلى وسبحانه وبحمده.

وإذا كان العقل قد عجز عن تصور الحلاوة، والحموضة، وما أشبه من المعاني الثابتة التي نتعامل معها ونستفيد منها ونسخرها لخدمتنا في كل وقت ومكان، فإنه عن تصور خالقه وخالقها تعالى أعجز وأعجز قال تعالى { فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }[الشورى:١١].

وكما أن القول بعدم تصور هذه المعاني في الذهن وعدم مشاهدتها بالبصر لا يعد نفياً لوجودها، ولا تعطيلاً لمنا فعها، إذ هي موجودة بالضرورة القطعية، فكذلك القول بالنسبة لمن يقول بعدم إمكانية تصور ذات الباري في الذهن، والذي من صفاته تعالى أنه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } لا يصح أن يعدَّ نافياً لوجود الله ومعطلاً، فهو تعالى موجود، ودائم الوجود، وهو مما لا يمكن ولا يصح تصور ذاته ولا صفاته تعالى بحال من الأحوال لعدم وجود صفات المخلوقين فيها، ولعدم قدرة العقل على تجاوز الخلق إلى الخالق.

ومن نعمة القرآن التي لم ينعم بها على أحد قبل هذه الأمة ومن عجائبه أن آيات { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }[الأنعام:١٠٣]، { **ولم يكن له كفوًا أحد**} [الصمد]، ونحوها قد وقفت أمام التصور العقلي عن ذات الله تعالى، بل إن مهمتها الكبرى نفي هذه الصور الوهمية عن الله تعالى؛ لأن البصر لا يقع إلاَّ على صور، وكذلك نفي المثلية من جانبها الأكبر، ونفي التكافؤ في سورة الإخلاص، كلها تنفي من ضمن ما تنفيه تصور ذات الله تعالى.

هذه الآيات الكريمة أرادت أن لا نتجاوز المخلوق في تفكيرنا وتصوراتنا إلى ذات الخالق تعالى، وأن لعقولنا أن تجول في أنحاء الخلق وداخل حدود المخلوق، أما إذا تجاوز العقل هذا الحد فإنه سيعود بعد الصعود هابطاً، ليهوي في عالم من التيه، والأوهام، والجهالات.

يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جوابه على من سأله أن يعلمه من غرائب العلم حين قال السائل: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال (ص):(أن تعرفه بلا مثل ولا شبيه، وأن تعرفه إلهاً، واحداً، أولاً، آخر، ظاهرًا، باطناً، لا كفوء له، ولا مثل له) [آمالي أبي طالب ، وشمس الأخبار].

ومن معاني هذا الحديث نفي المثلية والشبهية، وهي من أعمال التصور.

والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فإنه كثيراً ما هاجم التصور لذات البارئ بشكل واضح، حتى كأنه قد اعتبره عدو التوحيد الأهم، بل لقد اعتبر التوحيد هو عدم التصور لذات الله تعالى حينما قال:(التوحيد أن لا تتوهمه) أي لا تتوهم الله. والتوهم يشمل التصور،لأن الوهم خطرات القلب، بل لم يقصد الإمام علي سوى جانب التصور، فلم يقصد سواه من تذكر الله في القلب الذي هو ضد الغفلة. كما حاول الإمام علي (ع) إظهار خطورة التصور للذات المقدسة الكاملة، مستخدماً عدة عبارات ترمي إلى إنكار التصور؛ إذ يقول: (لم يطلع العقول على تحديد صفته)، يقصد به التصور؛ لأن تحديد صفة ما في العقل لا يتأتى إلاَّ عن طريق التصور، ولكنه يقول (ع) لتبيان المعرفة الحقة: (ولم يحجبها عن واجب معرفته)، ثم يوضح أكثر بقوله: (تعالى الله عما يقول المشبهون به)، خلاصة هذا

كله نفي التصور وذلك للوصول إلى الصفة العظمى، وهي نفي التشبيه والمثلية عن ذات الله تعالى.
ويقول أيضاً: (ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إياه عنى من شبهه) [النهج ص٤٠٢]، وهذه العبارات كلها تعني التصور؛ لأن الكيفية، والمثلية، والمشابهة، من متصورات العقل، ولا يصح في ذات الله غير هذا المعنى أبدا.
ويقصد الإمام (ع) بقوله: (ولا إياه عنى من شبهه) أن المتعبد المشبه لله تعالى قد عنى بعبادته ودعائه في قوله: **{إياك نعبد وإياك نستعين}**[الفاتحة] وغيرها من وجوه العبادة، غير الله تعالى، فهذه العبادة إن لم تكن شركاً وإثماً فإنها جهالة، وغير مقبولة؛ لأنه عنى بها غير الله لتشبيهه الله بخلقه، فعبادته متجهة نحو الشبح الذي يتخيله في رأسه، ولأنه إذا شبه الله فلن يشبهه إلاَّ بمخلوقاته، إذ الوجود ليس إلا خالقاً، ومخلوقاً، لا ثالث لهما، فأنت إذا لم تعنِ الخالقَ بعبادتك عنيت المخلوق، وذلك شرك.
ويقول عليه السلام: (ولا صمده من أشار إليه وتوهمه - أي تصوره-لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتو همه الفطن فتصوره)،[ص٤٠٤]، (ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلا).
ويقول:(لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهمه الفطن فتصوره) [ص٤٤٦]، ويقول: (وردع خطرات هماهم النفوس، عن عرفان كنه صفته) [ص٤٤٦]، ويقول: (كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزّؤك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى، بقرائح عقولهم) [ص ٢١٦].
ويحدثنا عن توحيد الملائكة، فيقول (ع): (لا يتوهمون ربهم بالتصوير).
فهو في هذا كله يهاجم التصور بشكل واضح جداً، وذلك لمعرفته بدور العقل، وحدوده، وخطورة الوهم في العقيدة، وسنورد مقتطفاً من كلماته في هذا الشأن لتتم الفائدة، وليصل بالعقل الباحث في عميقات الغيوب ، إلى اعترافه بالعجز عن الوصول إلى معرفة كنه ذات الله تعالى: يقول (ع)(هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خطرة من تقدير جلال عزته).[ص٢١٤].
أقول:لقد خرج بالعقل عن حدود عمله إلى مهاوي وظلمات الغيوب لتعسفه، حتى ذلك العقل المعصوم المبرأ عن الوسوسة والتوهم، كعقول الملائكة والأنبياء (ع) إن كانت كذلك، وكذلك تلك القلوب العاشقة الولهة والمتعطشة لمعرفة صفاته، كلها ترجع عاجزة معترفة بأنه لا ينال كنه معرفته - أي معرفة ذاته وماهيتها - يريد بهذا أن يثبت لنا أن العقل محدود لا يستطيع بجبلته وخلقته أن يتناول بتصوره الذات الإلهية، ويقول: وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهبِّ فكرها مكيفا.
ويقول موضحاً أكثر: (لم تحط به الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها، وإليها حاكمها).[ص ٣٩٨]، هذا هو عليُّ الذي عرف الله حق معرفته، وعرف طريق المعرفة به، وعرف ما للوهم والتصور من خطورة على التوحيد.
أما الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ع) فإنه في جوابه على سائل سأله عن معرفة صور الملائكة والجن على حقيقتهم، قال: - (قد عجز عن وصفهم الآدميون، وانحسروا عن

تحديدهم وعجزوا عن شـــرح ألوانهم، وهم خلق من خلق الله قد أظهره، وفعل من فعله قد بينه - إلى أن قال: - عجز عقلك وعقول أشـكا لك - أيها السـائل- عن صـفتهم وانحسـرت ونظراؤك عن تحديد هم وانقطعت وهم عن تقديرهم).[ص٦٢٠]، يريد الهادي (ع) من كلامه هذا أن يثبت بأن العقل الذي يتصـــور ما يمكن أن يتصـــور يعجز عن معرفة هذا الخلق، وأنّ تصَـوُّره عن هذين العالمين - الملائكة والجن - غير واقعي، ومَن هذه حاله في عجزه عن تصـور مثل هذه المخلوقات يعجز عن تصـور الذات المقدسـة. فتعال معي أيها القارئ إلى من يتصـور الذات المقدسـة لنقول له: أنبئنا عن صـور الملائكة والجن، وما هو دليل الإثبات على ما تقول لاشـك أنه سـيعجز، ولاشـك أن التصـوّر الذهني للذات المقدسـة صنم من الأوهام قابع في رؤوس هؤلاء المشبهة والمجسمة، يعبدونه من دون الله.

ما يسـتفاد من معرفة التصـور بصـفة عامة:أنما يرسـمه العقل من صـور خطابية ليسـت متطابقة مع صور الواقع، سواء كان الحدث حقاً أو كذباً.

- أنه ليس من الضـروري أن يكون المُتَصَـوَّرُ قد شـاهده البصـر، كما قلنا عن الملائكة وغيرهم، حيث يمكن أن يرســـم العقل صـــورهم بطريق القياس الدقيق من حيث المشابهة بأقرب مشابه، لكن الصور يجب أن تكون غير متطابقة.
- أن هناك معلومات لا يمكن تصـــورها، كالقوة الكهربائية، وجاذبية المغناطيس، وما تدركه حواسنا الأربع، ألشم، والذوق، واللمس، والسمع، من معنى مدركاتها، حيث لا صـــور لها في الشـــاهد ولا شِـــبه صـــور لها كما ذكرنا عن الحلاوة، والمرارة، والآلام، والأفراح، والروائح، والبرد، والحرارة، وما أشـبهها، ولكننا بالتجربة علمنا مكامنها، ومساكنها، ومولداتها.
- أنه لا يصـح اعتماد التصـور الخطابي لتصـور ذات الخالق تعالى؛ لأن هذا التصـور كما أثبتنا غير واقعي ولا أحدثه العقل لأجل واقعيته.
- أن ذات الباري تعالى لا يمكن إدراكها بحاسـة، ولا تصـورها بوهم، ولا تعيين مكان لها؛ لأنها ليست مما شاهدناها بأبصارنا، فغابت عنا فنقيس لها صورة على صورتها المعروفة كغيرها من ذوات الصـــور من الأجســـام، والألوان، والأنوار، والظلم، وغيرها مما تُدرَك بالأبصار، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإنها ليســت مما تدركه أســماعنا، ولا أذواقنا، ولا شــممناها ولا لمســناها، ولم نعرف لها مكمناً، ولا مسكناً، كمعرفتنا لمساكن الجاذبيات، والكهربائيات، وغيرها.

وأما ثالثاً: فإنه لا يمكن إنكارها؛ لأن العقل قد شـاهدها بما تحدثه من تغيير فينا، وفي العالم من حولنـا، في كل دقيق وجليل، وأن من لا يســـتطيع أن ينكر جـاذبيـة المغنـاطيس لعـدم مشـاهدتها الحسـية، لا يسـتطيع أن ينكر ذات الخالق تعالى لعدم مشـاهدتها الحسـية بطريق الأولى، وكذلك الأمر بـالنســـبـة للقوة الكهربائية وغيرها من المعاني التي تدركها الحواس الأربع كما تقدم، لأننا لم نتصورها.

وأما رابعاً: فإن آيات نفي المثلية كقوله تعالى: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الشورى:١١]،

تمنعنا بواقعيتها قبل نهيها عن تصور الله تعالى؛ لأن التصور- كما قلنا- قائم على التشابه والمقارنة بين متصورات ذوات الصور، فإذا انتفى التشابه والمماثلة انتفى التصور قطعاً،وأيضا فإنه هو المصوّر للصور قال تعالى:{ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[الحشر:٢٤]
خطورة التصور لذات الباري في العقيدة،- والتي حشي بها العقل حشواً عن طريق الأخبار الباطلة والتي يروجها المشبهة بشكل مركز وموسع، حيث تتحول تلك الصور المختلفة باختلاف التخاطب وأساليب العقول في تصوراتها - أتما تيكياً- إلى أصنام خيالية، وهمية، يعبدها من يخاطبها هي بـ **{إياك نعبد وإياك نستعين}**[الفاتحة] ويصلي لها بدلا عن الله الذي ليس كمثله شيء، وهذا هو عين الشرك، وما صنعت الأصنام قديماً وحديثاً إلا على هذه الصور الذهنية.

- إن كل فرد يحتفظ بصورة خاصة به عن الشيء الواحد المتصور على خلاف ما يتصوره الآخرون عن ذلك الشيء نفسه، وهاهنا الهوّة العقائدية السحيقة التي تردّى فيها المشبهة، والمجسمة، والقائلون بأنهم سيرون الله عيانا، التي لا مخرج لهم منها.

* * *

[الباب الخامس في الحواس]

والحواس الخمس، هي: السمع، والبصر، والشم، والطعم، واللمس.

وأصـــل حاجة الإنســـان إلى كل هذه الحواس- لتزويد العقل بالمعلومات المختلفة - ناتج عن اختلاف طبائع المعلومات المطلوب معرفتها في نفســـها، حيث تمتنع بذواتها عن إدراكها إلاَّ بحاســـة مهيئة لإدراكها، فمنها الأجرام، والألوان، والأنوار، والظلم، التي هي مجموع الصورة، فنحتاج في معرفتها إلى حاسة البصر.

أما الأصوات، فإنها لاتدرك بالبصر، وإنما بحاسة السمع المخول إليها التقاط هذه الأصوات بحســب اختلافها، ومن ثم إرســالها إلى العقل، وأما الروائح على اختلافها فطريقها حاســة الشم، حيث لا يمكن لحاسة السمع معرفة شيء من ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة للمطعومات وإدراكها، ليس إلاّ عن طريق حاسة الذوق الموجودة في الفم.

وحاســـة اللمس هي: الحاســـة الملتصـــقة بجســـم الإنســـان،والتي بها ندرك الحر، والبرد، والرطب، واليابس، فإن كل حاسة من هذه الحواس متخصصة بعمل لا تعرفه أختها؛ وذلك لتباين طبائع المعلومات ومساكنها، فالأصوات تختلف عن الأجسام وذات الأجرام، والألوان ، وهكذا بقية المعلومات، فلأجل هذا التباين في ذوات المعلومات وماهيتها وضـــع الله لإدراكها ومعرفتها الحواس الخمس، حيث تقوم كل حاسة بإدراك ما خلقت لإدراكه.

فبذلك استطاع الإنسان أن يدرك معظم ما حوله من أشياء، بخلاف ما لو لم يكن للإنسان إلا حاسة البصر-مثلاً-، فإنه لن يدرك المسموعات، وإدراكها مهم جدا في حياته، وهكذا بقية الحواس، وهذه الحواس ليست إلا مجسات العقل، لمعرفة ما يحيط به، وطرق وصول المعلومات إليه، وإلا فهو الذي يدرك ويميز، ويحفظ، ومن مظاهر الدلالة على ذلك تعطل هذه الحواس عند زوال العقل بالنوم أو ما أشبه.

ومن العجائب أن البعض بل الكثير من الناس ينكرون وجود معلومات لم يدركونها بهذه الحواس الخمس، ولذلك يقول تعالى:{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }[النحل:٨]، إذ كان عليهم أولاً : أن يعترفوا بعجزهم هم، ولو من باب دراســـة أنفسهم، فلو لم يُخلَق لهم إلاَّ حاستي البصر واللمس فقط لأنكروا وجود الأصوات تماماً، ولكفر وجحد معظم البشر بقول أي مبلغ عن الله بوجود الأصوات، وهكذا في بقية ما تناله بإدراكها الحواس الخمس، وهذه الحالة من أخطر ما وقع فيه البشر مع أنبيائهم.

ومن مظاهر الدلالة على ذلك، حالة الجحد بالملائكة وبالمغيبات الأخرى، التي حدثتنا عنها الرســـل وأخبرتنا بها الكتب الســـماوية، وكذلك حالة الإلحاد، التي حملها الشـــيوعيون والماديون عقيدة، ومذهباً، نظرية، وتطبيقاً، ولم يكن دليل الكل وحجتهم إلا أنهم لم يدركوا شيئاً من ذلك بحواسهم الخمس، فهم لذلك ينكرون ما وراء المحسوس ويجحدونه، ولو لم تأتنا كتب الله التي أخبرتنا بوجود عوالم مما غاب عنا وليس له أثر محسوس، لكنا جاهلين بوجود تلك العوالم.

وللتدليل على ذلك إيماننا بوجود عالَمَي الملائكة والجن، واســـتكشـــاف وجود الفيروســـات، والجراثيم الصغيرة، التي لم يدركها الإنسان إلا بعد اختراع أجهزة التكبير- الميكروسكوب -، إن هذه المشكلة لا تزال قائمة، ومتحكمة في فرق المجسمة والمشبهة، كما كانت - ولا تزال - متحكمة في أولئك الجاحدين، وسيتبين للقارئ أكثر من خلال القراءة والتدبر.

الحواس من حيث عملها ومراكزها:

وهذه الحواس تختلف اختلافاً كبيراً من حيث عملها كما سبق، ومن حيث قوتها وضعفها، ومن حيث قدرتها على إدراك ما بعُد وما قرُب، فمثلاً نحن نجد بأن حاسة البصر يمكنها إدراك صور تبعد في الظاهر عن الجسم عدداً من الأميال، بينما نجد السمع يستقبل الأصوات القريبة نسبياً، كما نلاحظ بأن حاسة الشم لا تدرك إلا عن بعد أمتار في الغالب، بينما حاستي اللمس والذوق لا يدركان إلاَّ ما لامسهما، وكل هذه الحواس لا يمكنها أن تنطلق منفصلة عن مواقعها في الأجسام ذاهبة إلى حيث المحسوسات آتيةً بالمعلومات، بل هي ثابتة في أماكنها لا تنفصل عنها، وإنما تدرك المعلومات الآتية إليها، فالبصر إنما يدرك المشاهدات بما يأتي إليه من صورها التي تصدرها هي فيحملها الضوء إلى البصر، وهو بدوره يلتقطها ويرسلها إلى العقل لتخزينها، قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }[يونس:٦٧]، والسمع يلتقط الأصوات التي تحملها الموجات الهوائية والمتصلات، فيرسلها إلى العقل، لتسجيلها، وخزنها لوقت الحاجة.

وكذا حاسة الشم، فهي لا تذهب إلى مكامن المشمومات، وإنما تستقبلها على ظهر الهوى الذي تستنشقه فتدرك ما يحمله من روائح وترسلها إلى العقل ليسجل تفاعلات النفس معها، أما حاستا الذوق واللمس فإنهما يستخدمان وسيلة ملاصقة المادة، التي تحمل معاني المطعومات والملموسات، كالحرارة، والبرودة، واليبوسة، والليونة، فتدرك ذلك بملاصقة تلك المواد لهما، أي أنهما تستقلان، بميزة أن تكون الوسيلة أو المادة الكامن فيها ذات المعلومات ملتصقة بهما دون الحاجة إلى أطراف أخرى. فالجسم يدرك البرد عند ملامسة الهوى الذي يحمل البرد للجسم، ويدرك صلابة الحجر لملامسته لها.

وكذلك الأمر بالنسبة للذوق، فالحلاوة لا يدركها الطعم إلاَّ عند ملامسة مادة العسل أو السكر للسان، فترسلان المعلومات إلى العقل لتسجيل تفاعلات النفس معها.

نطاق الحواس وحدود محاكاتها:

جسم الإنسان محاط بهذه الحواس الخمس، وليس فيه حاسة غيرها، ولا فراغ فيه لحاسة أو حواس أخرى، هكذا خلقه الله تعالى. وهذه الحواس محدودية المقدرة، محدودة المجال، فهي لا تحاكي في الأغلب إلاّ ماله علاقة بالجسم نفعاً أو ضراً.

وهي تستفيد من الآلة، لمعرفة أشياء لا تدركها إلا باستخدام تلك الآلة، كالمجاهر، ومكبرات الصوت.

كما أنها تدرك آثاراً لذوات لم تعرفها، فهي تدرك نور الكهرباء دون ذات القوّة الكهربائية الصادر عنها النور، وكذلك الأمر بالنسبة لجاذبية المغناطيس، والمطعومات، والروائح، وما أشبه مما ندرك أثره ولا نعلم ذاته.

فهذا وإن كنا نحدد مكامن تلك الذوات والمعاني وأماكنها، إلاَّ أن هذه المحدودية والتجزؤ الإدراكي والمعرفي دليل على ضعف هذه الحواس، وضيق نطاق عملها.

فهي أولاً: لا تحس بكل المخلوقات، ولا تعرف الكثير منها، مع العلم بوجودها، كما تقدم عن الآثار المدركة دون ذواتها.

وأما ثانياً: فإنها لا تتجاوز في إدراكها جنس المخلوقات، فهي مهيئة لإدراك ما يهم الجسم فقط، ليتفاعل مع ما حوله مما هيئ له في هذه الدنيا، من نعم يتقوى بها ويواصل بها حياته، ومعرفة هذه الفقرة مهمة جداً في باب العقيدة.

وأما ثالثاً: فإن هذه الحواس ومدركاتها يحتاجان إلى طرف ثالث ضرورة، فالصور تحتاج لكي يدركها البصر إلى النور، وحاسة البصر لكي تدرك الصور تحتاج إلى النور.

وتحتاج حاسة السمع لكي تدرك الأصوات إلى موجات هوائية أو موصلات تحمل السمع إلى تلك الحاسة، بينما الأصوات نفسها لكي تدركها حاسة السمع تحتاج إلى ذلك الطرف الثالث، وهو الموجات الهوائية، أو ما يقوم مقامه من تواصل مادّي، وهكذا في بقية الحواس ومحسوساتها.

أضف إلى أدلة الضعف تلك، وأدلة تحديدها بجنس المخلوقات فقط، محدودة كل حاسة على حدة وتخصصها بإدراك نوع معين من تلك المدركات المخلوقات مما يحيط بالإنسان، الأمر الذي يعني كنتيجة حتمية لما سبق ذكره ما يلي:

١- إن ما يدركه العقل بواسطة الحواس الخمس لا يكون إلا مخلوقاً قطعاً.

٢- ولأن العقل لا يدرك ذوات الأشياء إلا عن طريق الحواس الخمس، فإنه يستحيل قطعاً إدراك ذات الله المقدسة، ومعرفتها عن طريق هذه الحواس.

٣- ولأن الله تعالى غني الغنى المطلق، فإنه لغناه يتعالى لكي تدركه الحواس الخمس أو إحداها- بحسب ما يزعمه القائلون بالرؤية - عن الحاجة إلى طرف ثالث ينقل تلك الصورة عن ذاته تعالى إلى تلك الحاسة.

وبذلك نعرف استحالة إدراك ذات الله بهذه الحواس، وأما دعوى البعض بإضافة حاسة سادسة يوم القيامة ، فمجرد دعوى لا تقوم لها حجة، وأيضاً لا مكان لها في جسم الإنسان لاستغراق الحواس الخمس لهذا الجسم كله، كما أنه لا دليل على تلك الدعوى.

وإلى القارئ العزيز رأي الإمام الهادي (ع) حول هذه الحواس، مبيناً مهمتها، وعملها، يقول الإمام الهادي (ع) في - المجموعة الفاخرة - في جوابه -على صورة تساؤل لمشبه لله أو ملحد فيه - وموضحاً مهمة الحواس الخمس، وما يمكنها عمله، وفعله، وإدراكه من المخلوقات، وإن نطاق إدراكهن هو الخلق فقط-:(لعجز حواسك وعقلك عن درك معبودك بالتحديد، صح له سبحانه ما أنكرت من التوحيد؛ لأن حواسك وعقلك أدوات مجعولات مركبات على درك المخلوقات، مثلهنّ المصورات بالخلق كتصويرهنّ، فأما ما لم يكن لهن مشابهاً، ولا لمعانيهن مشاكلاً، وكان عن ذلك متعالياً، ولم يكن له حدٌ يُنال، ولا شبه تُضرَبُ له به الأمثال، فلا يُدرَكُ -جل جلاله- بهن، ولا تُدرك معرفتُه بشيء منهن، ولا يُستَدَلُّ عليه إلا بما دل به على نفسه من أنه هو، وأنه القائم بذاته، فلما صح عند ذوي العقول والتبيان، وثبت عند كل ذي فهم وبيان، أن الحواس المخلوقة والألباب المجعولة، لا تقع إلا على مثلها، ولا تلحق إلا بشكلها، ولا تحد إلا نظيرها، صحت له سبحانه - لماّ عجزت عن درك تحديده- الوحدانية، وثبت للممتنع عليها من ذلك - أي إدراكها له تعالى وتحديدها له-

الربوبية؛ لأنه مخالف لها في كل معانيها، وبائن عنها في كل أسبابها، ولو شاكلها في سبب من الأسباب لوقع عليه ما وقع عليها من درك الألباب)،[ص٢١٧،/٢١٨]، ثم استرسل كالسلسبيل حتى وصل إلى نتيجة، وهي أن الطريق إلى معرفة الله تعالى، هو النظر في مخلوقاته، لإدراكها بالحواس، وأن ذلك يؤدي إلى العلم الضروري واليقين. قال (ع): (فكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل كالدرك بالعيان سواء عند كل فَهِمٍ عاقل) [ص ٢١٨]. وقال في كتاب أصول الدين:(وهكذا قال- لا شريك له-: **{** لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ **}**[الشورى:١١]، لأن الله تبارك وتعالى ليس بشخصٍ فتجاهره الأبصار، ولا هو صوتٌ فتعيه الأسماع، ولا رائحة فتشمه المشام ولا حار ولا بارد فتذوقه اللهوات، ولا ليّن ولا خشن فتلمسه الأيدي؛ لأن الله سبحانه خلق الأبصار وما جاهرت، والأسماع وما وعت، والمشام وما شمت، واللهوات وما ذاقت، فهذه الحوا س الخمس المُدْرِكات كلها مخلوقات مجعولات...) إلخ.

[الباب السادس في المعارف وأقسامها]

في جوابه على من سأله عن المعرفة، يقول الإمام الهادي(ع): (واعلم هداك الله أن المعرفة هي: كمال العقل والعمل به، فإذا كمل العقل وصح واستعمل؛ تفرعت منه المعارف والأفهام، لذوي الفكر والأحلام، ومتى عدمت من الآدميين الألباب؛ لم تصح فيهم المعارف بسبب من الأسباب، بل تكون بنأيه أناً من كل ناء، وبدنوه أدنى من كل دان، تحضر بحضوره، وتعزب بعزوبه، محتاجة إليه، وهو غير مضطر ولا محتاج إليها، متفرعة من فروعه، كامنة في أصوله، كائنة بكينونته، وهو فغير متفرع منها، ولا محتاج مضطر إلى كينونتها، بل هو مقيد العماد، راسخ الأوتاد، فكل معرفة كانت من العباد، بالأزلي الخالق الجواد؛ فبالعقول استدركها المستدركون من ذوي الألباب، واستخرجها المستخرجون، ووقف على حدود شرائعها العالمون، وعلى ذوي العقول افترضت معرفة الله وعبادته، فهم الذين ينالون بأداء فرائض الله ثوابه، ويستحقون برفضها- دون غيرهم ممن سلب لبه - عقابه. فالعالمون من ذوي الألباب هم المجازون بالحسنة الحسنات، وبالسيئات من الأفعال السيئات. والعقلاء فهم الموقوفون للحساب، الخائفون لأليم العقاب، والكائن منهم ما ذكر الله سبحانه حين يقول: **{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ }**[آل عمران. ص١٠٦]،

تقسيم المعارف:

تنقسم المعار ف إلى: ضرورية بديهية، واستدلالية، والبديهية: هي معارف أوَّلية مدركة حسية، وعقلية قاعدية، وهي أقرب مظاهر الفطرة،- والفطرة غريزة شاملة، متعددة بتعدد

أجهزة الجســـم ومتنوعة بتنوع مهامها-، وإدراك ما يســـمى بالبديهيات، ليس لأنها فطرية، وغيرها من المدركات ليس فطرياً، فهي إنما غلبت عليها التسمية لوضوحها.
والأصل في وضوحها، قربها من الحس والشعور العملي- للعقل- والوجداني، ولذلك سميت هذه العلوم بالضرورية، كما أنها تفرض نفسها كواقع لا يمكن إنكاره.

والبديهية تنقسم - أيضاً - إلى ثبوتية، ونفيَّة، والنفيية هي: إدراك عدم وجود الشيء، كالمستحيلات، ونفي المشارك لله تعالى، لانعدام ما يدل عليه، ولقوله تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ }[محمد١٩]، فسمى إدراك نفي الشبيه علماً، وانعدام النار بعد وجودها، وزوال الشيء من مكانه المعهود، وكعلمنا بالأمم الماضية بإخبار الله لنا بها، وبوجود آثارها، وانعدام المُشَاهدَة بزوال المُشاهَد، وانعدام الأصوات بعد سماعها، ومجموع ما يؤكل ويشرب، ويشم ويطعم، ونحوها، فهذه أشياء نعرف انعدامها وفناها،

الثاني: البديهيات الثبوتية، كإدراك المحســـوســـات، إدراكاً أولياً،كالنهار، والليل، والحر، والبرد، وغيرها، ولزومياً، كالتلازم بين الأثر والمؤثر.
والقسـم الثاني من أقسـام المعرفة : الاسـتدلاليات، ووسـيلتها المعارف البديهية، والتجارب المباشـرة، والأسـلوب الفكري الأمثل، وهو اسـتنتاج الأدلة للوصـول إلى المعرفة، وقد تقدم ذكره في الإدراك الاســـتدلالي، ومعـارفـه ثبوت، ونفي، ومن ثبوتيـاتـه، العلم باليوم الآخر، والجزاء - جنـة ونـار- ومن نفييـاتـه العلم بعدم دخول المؤمن النار، وعدم دخول العاصـــي الجنة.

وتنقسم المعارف -أيضاً- بحسب ثبوتها إلى قسمين.

أحدهما: العلم اليقين.

والثاني: العلم العادي المحتمل وسيأتي.

١. العلم اليقين: هو المعرفة الثابتة، الصافية المطابقة، الناتجة عن البديهيات، والاستدلاليات النظرية، والتجريبية في أسلوبها الأمثل الصحيح، أو إخبار من لا يجوز عليه الكذب والتضليل - الله وأنبياؤه وأهل الكساء -، والأخبار المتواترة حقاً، ومن الأمثلة في الاستفادة من الدليل، قصة أبينا إبراهيم (ع) في نظره واستدلاله على الله، بملكوت السموات والأرض، قال تعالى **{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}**[الأنعام : ٧٥] الى آخر الآيات، وفي استفادته من التجربة واستدلاله بها، يقول الله عنه:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[البقرة ٢٦٠]. وهذا العلم - في مستواه الأعلى - يأخذ بالنفس

إلى التصديق والتسليم لواقعيته،- لا لاطمئنان النفس فإنها تميل إلى الهوى وتصدق الخرافة كما هو معروف - وإنما تصدق لقوة الدليل، وتستيقن لوضوح الدلالة، كما يقول تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[النمل : ١٤] ذلك لأن العقل مصمَّمٌ على أن يسلِّم بالحقائق، ولو نفرت عنها النفس، وأنكرتها كما هو معلوم من حال من عارض الأنبياء وكفر بدعوتهم،

وقد غلط من الأصـــوليين من يعبر عن ذلك - باطمئنان النفس إلى أن متعلقة كما اعتقده- فكثيرا ما اطمأنت نفوس إلى الباطل، وكثيرا ما اعتقدت الخرافة.

* * *

معرفتنا هي إدراك المعلومات

وهي: **إدراكنا لأشـــياء في ذاتها**، ونعني به:كل ما يدركه عموم ظاهر البدن - الحس- وكل ما يدركه الوجدان من حالة النفس،إدراك حقيقي :

يخرج الحالات الشاذة، من مرض، ووهم، وأعمال السحر، والحيل، فإن الحواس في مثل هذه الحالات أشبه ما تكون بالمعطلة لما تعانيه من المرض، ومن خداع.

وأشياء في وجودها

ونعني بهذه المعرفة: العلم بالمؤثرات وما لا تدركه حواسنا وبعض وسائل علمنا الأخرى، كمعرفتنا بوجود الله تعالى، لما نراه من صـــنعه وتدبيره ورعايته، وحياطته، ومخلوقاته الهائلة.

وكذا معرفتنا بوجود الملائكة والجن، فهذه الأشـــياء لا تدركها عقولنا بوســـائلها الحســـية والوجدانية وإنما ندركه تعالى بالفكر، وندرك عالَمَي الملائكة والجن، بإخبار الله الذي لا يجوز عليه أن يتخلف قوله.

والفكر والإخبار المذكوران من الوسائل العلمية الضرورية.

كذلك ما نعرف وجوده من خلال دلائله اللازمة، كالمطر البعيد عنا برؤية السحاب والبرق، والرياح بصـــعود الأتربة ونحوها، والكثير مما هو مذكور في علم الجيولوجيا، والطارق بالطرق وهي معرفة واسعة.

وأشياء في عدمها:

ونعني به إدراك عدم وجود الشيء سواء ما كنا قد علمنا وجوده قبل انعدامه، أم لم نعلم وجوده، وهي معرفة واسعة ومفيدة.

كانعدام النار بعد انطفائها، والماء بعد وجوده وزوال الشيء المعهود عن مكانه.

وفوق كل ذلك عِلمنا بأن - لا إله إلا الله - ولا شـــريك له ونحو ذلك قال تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ }[محمد١٩].

وأشياء كانت ثم بادت:

ونعني به ما قص الله علينا في القرآن من الأمم الماضـية وأنبيائها وما لاقته من ســعادة أو شقاوة.

وما شاهدناه وسمعناه وأكلناه وشممناه،.. إلخ.

فهذه أشياء نعلمها وقد فنيت وانعدمت.

وأشياء ستأتي وتحدث

ونعني به علمنا بالبعث والحساب والجزاء - جنة ونار.

أقسام العلم

وينقسم العلم إلى ثلاث تقسيمات:

أولها: انقسامه في وصفه.

وثانيها: انقسامه بحسب وسيلته.

وثالثها : انقسامه في ثبوته.

أما انقسامه في وصفه فينقسم إلى:

١- تصور.

٢-عدم تصور.

٣- تسجيل وانطباع.

أما التصور: فقد تقدم الحديث عنه بتفصيل كافي.

وأما انعدام التصور: فهو إدراك ما لا يقبل العقل تصوره، وقد تقدم، وعدم تصور هذه الأشياء هو حقيقة العلم بها مع إثبات وجودها.

أما التسجيل: فهو ما احتفظ في أذهاننا من أصوات ذوات الأصوات، التي كنا قد أدركناها بأسماعنا بغض النظر عن مدلولاتها التي نفهم بعضها، وكذا الانطباعات النفسية، وقد تقدم.

* * *

التقسيم الثاني:

انقسام العلم بحسب وسائله

ينقسم العلم بحسب وسائله إلى قسمين:

أحدهما: الضروريات

والآخر : الاستدلاليات

كما ينقسم الضروري إلى قسمين:

ضروري بديهي، فكري، ووجداني، وهي المعارف الحاصلة بالبداهة الفطرية، وبالحواس السليمة.

وضروري استدلالي، وهو ما يحصل بالتجربة الذاتية، وبالأدلة الكاملة، والبراهين القوية،ككتب الله تعالى، ومعجزات الأنبياء (ع) وقد اعتبر الخالق تعالى هذه أدلة قطعية ضرورية، كقوله تعالى: { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }[الأنعام:٣٣]، - وقد أخطأ من الأصوليين من لم يعتبر ذلك من الضروريات البديهية - ومنطلق هذه المعارف البديهية بأقسامها، الموازين القاعدية الأساسية للعقل البشري التي هي- الفطرة - وقد تقدم نحو هذا بما فيه الكفاية ، غير أن التقسيم يفرض على الواحد أن يكرر أحياناً.

وأما الضروريات العقلية القاعدية: فكوجود الفاعل والمؤثر والمجموع والمثنى والمفرد، وحالات النفس من سرور وضجر، وجوع وعطش، وشبع وري وألم،..الخ.

علماً بأن وجود الله تعالى، معلومة ضرورية الضرورات وبالبداهة إذ لا يمكن العلم بوجودنا نحن دون العلم بوجود خالقنا، ونحن موجودون قطعا.

وينقسم الاستدلالي إلى ذاتي كالضروريات الفكرية، كما تقدم.
ومن وسائل المعارف الضرورية، في رأيي خبر من لا يجوز على قوله التخلف، وهو الله تعالى، وأنبياؤه وكتبه، وأهل الكساء لعصمتهم.
وإلى اكتسابي: وهو المعارف المكتسبة من علوم الآخرين، وهو باب واسع جداً ومفيد.

التقسيم الثالث

إنقسام العلم في ثبوته:
ينقسم العلم بحسب ثبوته ورسوخه إلى قسمين
أحدهما: العلم اليقين : وقد تقدم ذكره
والثاني: العلم العادي المحتمل.
وهو: المعارف المكتسبة عن طريق الأخبار الصادرة عن غير المعصوم - نحو زيد في الدار وعمرو يعمل في التجارة،وما أشبه ذلك.
وسمي محتملاً لأنه يحتمل الضدين: الوقوع وعدمه والصدق والكذب.
وهذه المعارف نرجح تسميتها بالعلم تغليباً لا إطلاقاً كونها أقرب إلى الممكن منها إلى المستحيل، و إلا فإنها لا تزال محتاجة إلى مرجح ودافع من الواقعية ليرتقي بها إلى درجة العلم الحق، وهي منشدة جداً إلى مصادرها، واعتبار واقعيتها متعلق بنسبة مصداقيتها.
فحيث يكون المصدر نزيهاً عن الكذب والاختلاق، معروفاً بلزوم الصدق والتشدد فيه، يحكي عن حسه ليس له دافع يدفع به نحو اقتراف الكذب وكان خبره ممكنا وقريبا جدا، فانه حينئذ يكون مصدراً قوياً يرقى بخبره إلى العلم - وليس إلى اليقين - حيث يكون احتمال الضد ضئيلا جدا، أما الاحتمالات فلا يرفعها إلا الخبر المتواتر، كعلمنا - بلندن- وطوكيو، نحن الذين لم نسافر إليهما، ونحوهما مما تواترت بوجودها الأخبار.
إن هذا العلم وعلاقته بالمصادر أشبه شيء بألوان قوس قزح حيث تتدرج ألوانه من الضعف إلى الوضوح بصورة دقيقة.
فكلما قوي المصدر كلما كانت له قابلية في النفس واطمئنان نسبي، حيث تكون نسبة القناعة والتصديق مساوية لنسبة قوة المصدر وثبوته، وهذه موازنة فطرية طبيعية لا يصح الاعتداء عليها ومصادرتها بالتهويل لما روي وما كتب.
ومن هنا يمكنني القول: بأن العلم هو المعارف القائمة على أساس الأدلة، وإن لم يطلع عليها البعض، وعليه فليس من المعقول اعتبار ما يتمتع بالأدلة من المعارف ظنا، لعدم إطلاعنا على تلك الأدلة، ولا اعتبار ظن الظانين ممن لم يطلعوا عليها حجة، لأن التقصير واقع من عدم الإطلاع على الأدلة لا لعدم وجود الأدلة نفسها، ولا لغموض فيها، فكل معرفة لها أدلةٌ فهي علمٌ لا ظن، وإن كان من لم يطلع على أدلتها ظانا بها، وكل ما كان قائما على أساس القرائن فظن، ولا يمكن الخلط بينهما أبدا لأن القرائن لا تعطي بذاتها وطبيعتها وتعاطي العقل معها إلا ظنا.
وقد حصل في هذا الفصل خلاف عريض بين المسلمين حول ما يروى من أخبار الرسول (ص) وما يجب الأخذ به وما يترك وما صح وما لم يصح ، وكيف تعالج ، هل بعرضها على القرآن أم بالتأويل أم بإلقاء العهدة على الرواة، وهل يعتبر الظني منها أم لا يعتبر إلا العلمي وما هي مقاييس الظني، ثم اختلفوا حول الحلول التي يعالج بها الظني، وحول المرجحات، وما هو واجب الإنسان أمام هذه القضية؟ هل يقلد؟ وما هي مواصفات القدوة أم

يأخذ بالظني ، أم لا يجب عليه إلا ما ظهرت له فيه الحجة، وهل معرفة ذلك من تكليف ما يطاق أم مما لا يطاق،
ولا يزال الخلاف على ما هو عليه قائما لم يصل بنا إلى حل حقيقي، لانحرافه منذ البداية عن وسائل الهداية والمعرفة، غير أن مفترق الطريق قد تمثل في تقليد البعض لرواة وكتب معينة ، والبعض الآخر في التمسك بمبدأ عرضها على القرآن، معتبرين القرآن الكريم أكبر المرجحات لعصمته مما وقع على السنة من الدس والكذب ، وكونه عصمة المسلمين ومرجعهم الذي يجب عليهم الرجوع إليه عند الاختلاف، فيرون أن ما وافق القرآن- مما رواته عدول -، وانسجم مع خطوطه العريضة، واعتباراته، يكون مرجحا كافيا للأخذ به واعتباره، والفائدة من التزام مبدأ عرض الأحاديث على القرآن،
أولاً: لأن القرآن نفسه قد أمر بالرجوع إليه عند الاختلاف، وأمره ملزم للعمل به، وهذه المرويات من أشد ما اختلف عليه المسلمون. فهم يرون أن واجبهم القرآني يفرض عليهم العرض لهذه المرويات عليه.
ثانياً: أن الروايات التي تقول بالعرض، صحيحة وقد عرضت هي عليه فوافقت ما فيه من آيات الرجوع إليه عند الاختلاف، ويرون أن ما تُرك العمل بها إلا لأسباب مذهبية.
ثالثاً: سد الطريق أمام العمل بالأحاديث المكذوبة،كالإسرائيليات، والنفاقيات، ومختلقات المبتدعة، وأكاذيب المتعصبين لمذاهبهم وهم كثير جدا، فلأن القرآن نزيه من كل **ذلك { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }**[فصلت:٤٢]، فهو الدواء لكل تلك العلل.
رابعاً: ولأن دين الله علميات، آيات وبصائر ، وحجج، فهم لا يرون العمل بالظنيات لا في العقائد ولا في العمليات، ولا موافقا لمثل قوله تعالى: **{ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا }** [النجم:٢٨] ولا يرون الناس مكلفين بالظن، بل يرون الأحوط في الدين، وللمسلمين ترك العمل بالظن، لئلا يسقطوا في وحل الإفتراء على الله لقوله تعالى **{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }** [الأنعام:١٤٤] ولئلا يبتدعوا في الدين.
خامساً: كون الإنسان معرضا للخطأ والنسيان فلا يستبعد أن تتأثر روايته بهذه الجبلة البشرية، وإلا فلماذا عصم الله الأنبياء ؟.. إذا لم تكن لأجل طبعهم البشري هذا، وكم عانى علماء الحديث من أصحاب السهو والغفلة، والاختلاط، من الثقات فضلاً عن الكذابين، وبالتالي فإن عرض هذه الروايات على القرآن، كفيل بتصحيحها وتقويمها.
سادساً: ولأنه من غير الجائز عقلاً كما هو شرعاً أن يصدر من النبي(ص) ما يخالف شريعته وينقض رسالته أما عقلاً فلأنه عبث وخلاف الحكمة، وهو أنزه من أن يظن به هذا ، وأما شرعاً فإنه (ص) مكلف بالتزام نهج القرآن **{ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ }** الأنعام : ٥٠] ، ونحوها، وكم هي تلك الأحاديث المخالفة لهذا المنهج، قد شكلت وسيلة للطعن في الدين وفي أنبياء الله، ويشمل هذا الصنف معظم الأحاديث التبريرية، وبعض القصص الواطية عن بعض الأنبياء (ع).
فوفق هذا المنهج العلمي ـــ عرض الأحاديث المروية عن النبي على القرآن الكريم ـــ فقد اعتبرت الأحاديث النبوية مصدرا علميا وحجة دينية، والمتقدمون من الزيدية والكثير من

متأخريهم سلكوا هذا المسلك ، وربما البعض من العلماء من غيرهم ، ومن هنا فيكون تقسيم الروايات عندهم كما يلي:

الأول: المتواتر، وهو ما نقله جماعة عن جماعة يستحيل تواطئهم على الاختلاق والكذب، والاستحالة هنا لا تتم إلا إذا كانوا متباعدي البلدان، بصورة لا يمكن معها الاتفاق على أن يكذبوا، وهو أعلى الأخبار رتبة، وذلك لأن التواتر يعطي العلم اليقين بصدق الخبر.

الثاني: المتلقى بالقبول: وهو الخبر الذي تعمل الأمة كلها به وليس فيها من ينكره، أو العمل الذي تعمل به الأمة كلها دون مخالف منها، تقول بذلك أو تعمل به على أنه من الدين، أو ما أجمع عليه آل محمد(ع) لوحدهم لأن إجماعهم هو حجة إجماع الأمة.

الثالث: ما رواته عدول على الحقيقة، وله في كتاب الله شاهد، وذلك لأن الأحاديث الظنية، لا تثبت بها حجة كونها لا تعطي علماً، حتى ولو رواتها عدول كما ذكرنا سابقا من احتمال خطأ الراوي، فعرضها على القرآن، وشهادته لها بالموافقة رفعٌ لها من حالة الظن التي هي عليه إلى مستوى العلميات، لتكون حينئذ حجة في بابها.

وبعض المذاهب يرى اعتماد سند محدد، فحيث يكون الخبر قد جاء، من ذلك السند فإنهم يعتبرونه دليلاً، وملزماً بالعمل به، وكأنهم لم يلحظوا القضية العلمية، ولا المعايير، والأسس الموصلة إلى المعرفة بصحة الرواية من عدمها، كما أنها لم تسعفهم تلك المجلدات من كتب علوم الحديث، والجرح والتعديل للوصول إلى حقيقة الخبر، لأنها لم تدخل المدخل السليم، فقد انشغلت بنصرة المذهب، وتقوية الآراء الخاصة، وتلميع الشخصيات الموافقة، وبتحاملها ضد الشخصيات المخالفة لها في الرأي والولاء، حيث افتقدت تلك المجلدات أهميتها، وفائدتها، وتحولت إلى عامل شقاق، وتشنيع حتى رأى البعض أنها ربما كانت أو بعض محتوياتها ملفات شرطة، في الدولتين الأموية والعباسية، وقد نال هذا المنهج دعم السلطة وحمايتها له، كما دعم بالمنامات، وادعاء الكرامات، للتعويض عن واقعيته العلمية.

الظن:

الظن: هو حالة من التهيؤ النفسي الأولي لقبول مدلولات الأخبار العادية والأمارات والقرائن والمصادر الظنية الأخرى، لم يرق إلى درجة العلم، ولا هو الوهم، لارتكازه على ما ذكرنا من الأخبار والقرائن والأمارات المحتاجة إلى البحث والتمحيص، للتحقق من صحتها، وواقعية مدلولاتها حتى تعطي معرفة وعلماً، صار الظن وسطاً بين هذا وذاك وهو الشك.

وقد تبوأ الظن مكانة مرموقة، بين وسائل المعرفة، وتحكم في مصادر التشريع، - القرآن والسنة - وصار هو المعول عليه في القضاء والاجتهاد، والتفريعات الفقهية، والقياس، وتصحيح الروايات، وترجيح المرجحات، وفهم معاني النصوص ومدلولاتها، حتى صارت معظم تعاليم الإسلام معتمدةً وقائمة على الظن، لا بل حتى مدلولات نصوص القرآن ظنية، ومدلولات حديث الرسول كذلك، فالقرآن برأيهم: قطعي النص ظني الدلالة.

١. ولكن كيف أصبح الظن بهذا المستوى من العظمة ؟ مع ما جاء فيه من آيات قرآنية، تضعه في أدلة الضالين من نحو قوله تعالى: **{** وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ **}[** الأنعام آية١١٦]، **{** سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن

شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ }[الأنعام ١٤٨]، {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس ٣٦]، { أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } [يونس ٦٦]،{ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا }[النساء١٥٧]، { إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى }[النجم٢٣]، { وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا }[النجم ٢٨]، وقال في بني إسرائيل { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }[البقرة، ٧٨]. ويقول في النهي عن إتباع الظنون، ونحوها{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}[الإسراء،٢٦].

وإنها لمفارقة واضحة وعجيبة، بين حكم القرآن على الظن، وحكم الظن على القرآن في مفاهيم أصحاب أصول الفقه.

والجواب برأيي، أن أيدٍ عابثة قد جاهدت لأجل سيادة الظن - مع اختلاف مقاصدها - وذلك:

١- لأنه يصلح أن يكون ستاراً لإخفاء العاجزين عن معرفة اللغة العربية جسماً وروحاً، - مع أنها هي الأخرى لم تسلم من العبث - والذي بها تعرف النصوص وتفهم وتعلم.
٢- وسيلة سهلة للشهرة والتصدر في الواجهة العُلمائية.
٣- وسيلة هامة لإيجاد الفوضى الدينية، وإثارة الخلاف والتشاجر، والتفرق في الدين إلى مذاهب وطوائف وشيع.
٤- مناخ صالح لنمو البدع والخرافات.

ومن هنا نقول إن حجية القرآن، وبيّناته، وبصائره، وآياته الآخذة بزمام العقول على الخنوع أمامها والتسليم والتصديق لها، قد ذهبت في ظل الظن أدراج الرياح، وصار ينظر إلى دين الإسلام الذي كان يشع كالشمس يغزو العقول ويجتذب النفوس - في سماء الظنون- ، مجرد دين خافت باهت تحكمه الظنون وتعشعش فيه الوهوم.

* * *

وأخيراً

فقد حاولنا أن نشارك بقدر ما عندنا في إبراز قيمة الإنسان، وكرامته في الإسلام، وفي الخلق من حوله، وفي خلقته هو، وعقله ومعارفه.

كما حاولنا أن نوضح قشورية بعض الأفكار والآراء التي تمس بكرامة الإنسان وعرضه، وأمنه على نفسه وما يعنيه، والله سبحانه أعلم وأحكم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كثيرا.

يحيى بدر الدين الحوثي وفقه الله تعالى
١٨- ذي القعدة، سنة ١٤٢٣هـ